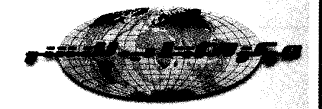
الأستاذ الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجى

نداء السماء إلى الإنسانية
(كتاب الله العزيز)

تقديم
الدكتور السيد الجميلى

مركز الكتاب للنشر

الطبعة الأولى
١٩٩٩



مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون : ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر : ٢١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت : ٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم: السيد الجميلى

(١)

القرآن الكريم هو حجة الله البالغة على خلقه... وهو حبل الله المتين، والصراط المستقيم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لما سمعته الجن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، (راجع تفسير القرطبى ١٩ / ١ والطبرى ٢٩ / ٦٤ وفتح القدير للشوكانى ٥ / ٢٩٣).

وهو الذى قال فيه الوليد بن المغيرة حين سمع النبى ﷺ يقرأ: ﴿الم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ١ - ٣]. قال الوليد لقومه: والله ما هو بقول شاعر. لقد عرفنا الشعر كله: رجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر... وإن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لغدق، وإن فرعه لجناة.. وإنه ليس بقول بشر...

وفى القرآن الكريم خبر من قبلنا، ونبأ من بعدنا، وحكم ما بيننا، هو الفصل وليس بالهزل... هو حبل الله المتين والنور المبين، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا يخلق على كثرة الرد...

إنه كتاب الله المتين... حاول الأقدمون من الجاحدين معارضته فأخفقوا، وفشلوا، وقعدت بهم همتهم عن محاكاته، وتخلفت عبقريتهم عن مجاراة إعجازه، إذ عجزوا عن الإتيان بعشر سور من مثله لما أن تحداهم بذلك... ثم تصعَّد التحدى والإعجاز بأن يأتوا بسورة من مثله، فلم يكن لهم من حول ولا قوة إزاء ذلك إلا التسليم المطلق.

قال الإمام الباقلانى: وجه إعجاز القرآن ما فيه من العلم والتأليف والترصيف، وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتادة فى كلام العرب، ومباين لأساليب خطاباتهم، ثم قال - رحمه الله -: ولهذا لم يمكنهم معارضته. أ هـ.

إن من مناحى إعجاز القرآن الكريم هو ذلك الشعور النفسى والوجدانى بالرهبة والخشية لما انطوى عليه من فرائد ودرر ونفائس لا توجد فى غيره من مسموعات ومقروءات العرب مع انطوائه على كل ما يذهل له العقل الحصيف والفهم الزكْن من إخبار بليغ بالمغيبات التى لا يحيط بمداها عقل بشرى، لكونه تنزيلاً من رب العالمين.

قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

إن وجوه إعجاز القرآن الكريم إنما تبدو من استمرار الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميع أجزائه استمرارًا لا يوجد له فترة.

رأى الأصبهانى وغيره من الأئمة أن إعجاز القرآن مصروف إلى وجهين:

الأول: فصاحته وبلاغته.

الثانى: صرف المخلوقين عن الإتيان بمثله ومعارضته.

والقرآن انطوى على كثير من المعارف الإلهية مثل المبدأ والمعاد، والإخبار بالمغيبات المحجوبة عن منظور المخلوقين.

* * *

(٢)

وللقرآن الكريم أسماء كثيرة... فهو: ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[الدخان: ١، ٢].

وهو القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧].

وهو كلام الله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، (انظر كشاف

الزمخشري ٢ / ٢٤٨ وزاد المسير لابن الجوزي ٣ / ٣٩٩ والبحر المحيط لأبي حيان ٥ / ١٠).

وهو النور المبين: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، (راجع تفسير أبي السعود ١ / ٤٠١).

وهو الفرقان: ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، (راجع القرطبي ١٣ / ١ والطبري ١٨ / ١٣٤ والبحر المحيط لأبي حيان ٦ / ٤٨٠).

وهو الذكر المبارك: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، (انظر أبا السعود ٣ / ١٢٤ والقرطبي ١١ / ٢٩٠ وزاد المسير ٥ / ٣٥٤ وحاشية الجمل ٣ / ١٣١).

وهو أم الكتاب: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ [الزخـرف: ٤]، (القرطبي ٦١/١٦ والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٦ / ١٤ والبحر المحيط ٥/٨ ، ٦).

وهو الحكمة البالغة: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [القمر: ٥].

وهو الكتاب الحكيم: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، (التفسير الكبير للفخر الرازي ١٧ / ٣ والقرطبي ٨ / ٣٠٦).

وهو حبل الله المتين: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، (قال ابن قتيبة: أي بدينه وعهده. انظر غريب القرآن).

وهو الصراط المستقيم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، (راجع القرطبي ٧ / ١٣٧ ومختصر ابن كثير ١ / ٦٣٣).

وهو القيم: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا﴾ [الكهف: ٢]، (انظر البيضاوي ٢ / ٢ والطبري ١٥ / ١٩ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠ / ٣٥٣).

وهو القول الفصل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣]، (راجع التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١٩٣ وأبا السعود ٨ / ٤٣٧ وجامع البيان للطبري ٩٥/٣٠).

وهو النبأ العظيم: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١]، (راجع أقوال العلماء فى القرطبى ١٩ / ١٦٨ وجامع البيان للطبرى ٣٠ / ٢).

وهو أحسن الحديث، كتابا متشابها مثانى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، (انظر القرطبى ١٥ / ٢٤٩ والتفسير الكبير للرازى ٢٦ / ٢٧٠ والطبرى ٢٣ / ١٣٥).

وهو التنزيل: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، (مختصر ابن كثير ٢ / ٦٥٩).

وهو بصائر للناس: ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، (القرطبى ٧/ ٣٥٢).

وهو تذكرة: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ﴾[الحاقة:٤٨]

وهو بيانٌ للناس: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، (الطبرى ٩/ ١٠٩ والقرطبى ٤ / ٢١٦).

وهو الصدق والعدل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥]، (انظر أبا السعود ٤ / ٢٧٤ والقرطبى ٧ / ٧١ وكشاف الزمخشرى ٢/ ٤٦، وروح المعانى للألوسى ٨ / ١٠).

ثم إن هناك أسماء أخرى للقرآن الكريم مدارها جميعا على أنه قول الحق المبين، والذى بلغ الغاية القصوى التى لا غاية بعدها فى الإعجاز والفصاحة والبيان، وقوة الحجة، وإفحام الخصم الجدل المماري فى سلاسة وعذوبة وقوة، مع احتوائه وانطوائه على الوعد والوعيد والبشارة والنذارة فى أسلوب غير مسبوق.

قال رسول الله ﷺ: «القرآن شافع مشفع، وماحل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار» (أخرجه ابن حبان، والبيهقى عن جابر، ثم أخرجه الطبرانى والبيهقى عن ابن مسعود أيضا).

وورد عنه ﷺ أنه قال: «القرآن هو النور المبين، والذكر الحكيم،

والصراط المستقيم» (أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان، وحسَّنه السيوطى فى الجامع الصغير ٢ / ٢٢١ / ٦١٨٦).

* * *

(٣)

وفضائل القرآن الكريم كثيرة غير محصورة، ولو لم يكن له من الخصائص إلا كونه قولاً من رب رحيم لكفاه ذلك قداسة وكرامة سرمدية لا بداية ولا نهاية لها.

ثم إن أفضل فضائله بعد ذلك أنه قائد إلى النعيم الأبدى المستديم فى دار المقامة، وهو طوق النجاة لأهل الجنة.

وقد وردت فى فضائل كتاب الله العزيز أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «من قرأ آية الكرسى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» (أخرجه النسائى وابن حبان عن أبى أمامة وصححه السيوطى فى الجامع الصغير ٢ / ٥٤٥ / ٨٩٢٦) وقال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه» (أخرجه الأربعة عن ابن مسعود، وصححه السيوطى ٢/٥٤٦ / ٨٩٢٧).

ذكر الإمام مسلم فى صحيحه، والنسائى فى السنن، وأحمد فى المسند، وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال» (صححه السيوطى ٢ / ٥٤٦ / ٨٩٣٠ ومسلم ٨٠٩).

وورد فى كتاب الترمذى الجامع الصحيح: «من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال» وهو مروى عن أبى الدرداء (مسلم ٨٠٩ وأبو داود ٤٣٢٣ والترمذى ٢٨٨٨ بنحوه).

وذكر البيهقى فى شعب الإيمان، عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ يس ابتغاء وجه الله غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه، فاقرأوها عند موتاكم» (وصححه السيوطى أيضا ٢ / ٥٤٧ / ٨٩٣٨).

ثم إن سورة الإخلاص تعدل ثُلُثَ القرآن، إذ ورد فى مسند الإمام أحمد ابن حنبل وغيره كما ورد أيضا فى كتاب النسائى (السنن) أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن» (وهو حديث صحيح، وانظر الجامع الصغير ٢ / ٥٤٧ / ٨٩٤٤).

وذكر الإمام البخارى أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة» فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «قل هو الله أحد ، الله الصمد: ثلث القرآن» (أخرجه البخارى فى صحيحه ٩ / ٥٤ و ١٣ / ٣٠٠).

وورد أيضا فى الصحيح أنه قال: «والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» (البخارى ٩ / ٥٣ و ١١ / ٤٦١ و ١٣ / ٣٠٠ وأبو داود ١٤٦١ والنسائى ٢ / ١٧١).

والقرآن خيرٌ وبركة فى الدنيا والآخرة، فمن حفظه واستظهره فى الدنيا كان محمودا وممدوحا ومهيبًا وكان فى الآخرة وجيها ومقبولا مرضيًا.

أخرج الشيخ البخارى فى كتابه الصحيح عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» (البخارى ٩/ ٦٦، ٦٧ وأبو داود ١٤٥٢ والترمذى فى الجامع الصحيح ٢٩٠٩).

وفى صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين» (مسلم فى صحيحه ٨١٧).

وذكر أبو عيسى عن ابن مسعود، رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» (قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح ٢٩١٢ والدارمى ٢ / ٤٢٩).

* * *

هذه مقدمة تشريف، وليست تقديم تعريف، وقد شرفنى شيخ الأدباء، وأديب الشيوخ، العلامة الأديب اللغوى البلاغى المفسر الشاعر البحاثة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، وهو الموسوعى الشهير ـ لقد شرفنى بأن عهد إلى بكتابة مقدمة لهذا السفر النفيس الشائق الممتع.

ولقد رأيت المهمة شاقة صعبة، بل بالغة الصعوبة والمشقة، إذ كيف يتم النهوض بهذه المهمة العسيرة إزاء علم معروف من أعلام العصر؟

إنه تقدم الحلبة وفاز بقصب السبق بالغا من ذلك شأوا بعيدا منذ ما ينيف على نصف قرن من الزمان من البذل والإبداع المشهود.

ثم إن تعدد أوجه نشاطه ما بين إسهامات بحثية وعلمية إلى دراسات أدبية محضة، إلى إبداعات شعرية بحتة، من تأليف وتصنيف وتحرير، إلى تحقيق وتعليق على كتب التراث الموسوعية المتعددة التى عليها مدار البحث والتأصيل والتوثيق.

هذا فضلا عن شاعريته التى قدمها للمكتبة الأدبية والتى بلغت عشرة دواوين.

إن مؤلفاته ومحرراته وتحقيقاته وشروحه قد أزهت وأربت على الخمسمائة كتاب فى شتى صنوف المعرفة.

لقد حصل الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى على العالمية الممتازة (حرف أ) من درجة أستاذ (وهى المسماة بالدكتوراة حاليا) وكانت فى وقت حصوله عليها لا تعطى إلا لأولئك الراسخين المتبحرين فى العلم، من المطبوعين على حبه، المفطورين على عشقه.

لقد رضع أخلاف الفصاحة، وارتضع أفاويق الحكمة، وارتوى من معين البيان مفهوما لا يشبع، ولا يزال هذا دأبه وديدنه حتى يومنا هذا.

وعلى الرغم من بلوغه سن الثالثة والثمانين ـ أطال الله عمره ـ إلا أن

عطاءه وبذله لا يزال سخيًا، وروضه ممرعًا، وغراسه الطيب منظورًا. إليه لانطوائه على جدة مطلقة، وتناوله الدقيق الشائق الممتع للعديد من المهمات القرآنية بالغة الأهمية.

قرأت هذا الكتاب الممتع فأفدت منه إفادات جمة ولطالما سألت الله تعالى أن يجزى عنا أستاذنا خيرًا كفاء ما أعطى وسوَّغ لهذا الجيل والأجيال القادمة وجعل أعماله ونشاطاته الخالصة المبرورة فى ميزان حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولئن كان العلم رَحمًا بين أهله، ولئن كان من حقها أن تكون ماسة مبلولة فإن مدار ذلك على العرفان والامتنان لأقطاب العلم المبرزين أهل المبرات وأولى المروءات.

وماذا يصنع أولئك المستفيدون المنتفعون من علم شيخنا وفضله وحيائه ومروءاته ردًا للجميل وعرفانًا وامتنانًا هو حقيقٌ به وهم جدراء بالأداء والوفاء به؟

أطال الله عمر شيخنا وأستاذنا فضيلة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى صاحب هذه الدرة الغالية عليه وعلينا (نداء السماء إلى الإنسانية «كتاب الله العزيز») وجعله فى ميزان حسناته، وفرطا له فى الموقف يوم نلقاه.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

السيد الجميلى
القاهرة ـ المعادى

القاهرة ـ المعادى
فى ٣٠ من ذى الحجة ١٤١٨ هـ
٢٧ من أبريل ١٩٩٨ م.

القسم الأول

بين يدي كتاب الله العظيم



كتاب الإنسانية

(١)

نعم كتاب الإنسانية كلها، وكتاب البشرية كافة وكتاب الدين والدنيا وكتاب العلم والمعرفة، وكتاب الإيمان والتوحيد، وكتاب الروح والفكر . .

إنه القرآن الكريم، كتاب الله الخالد المبين. . ولابد أن نذكر القرآن الكريم ألف مرة ومرة، ونحن فى شهر نزول القرآن، شهر رمضان المبارك الميمون.

ومن عجب أننا حين نقرأ القرآن الكريم، نذهل حق الذهول للشخصية المهيمنة المسيطرة على ذهن القارئ والسامع، والتى تبلغ من العظمة ما لا يدركه عقل، ومن الجلال ما لا يحيط به وصف، ومن العزة ما لا يتصوره فكر . .

تقرأ فتجدك مع الماء تارة، ومع الأرض بجبالها وأنهارها وسهولها وأشجارها وأزهارها وورودها ورياحينها تارة أخرى، وتجدك مع الكون الفسيح، ومع القدرة الشاملة، ومع الإرادة النافذة، ومع الملك والملكوت، والعزة والرحمة والجبروت، ومع خلق الإنسان، ومع الحياة والموت، والبعث والحساب والنشور، ومع العذاب والنار، ومع الجنة والجحيم، ومع أدنى مسائل الحياة ومع كل أمور الموت، ومع النجوم فى أبراجها، والسفن الفاخرة فى تسخير الله لها للإنسان.

ونجد القرآن يقص قصص الأولين، ويحكى حوار الأخيرين، فى يوم القيامة، يوم الدين، ويذكر جهاد الأنبياء من أجل رسالة السماء وتبليغها للبشر، والأمم القديمة البائدة التى لم تدون أخبارها كتب التاريخ، ولا أسفار العلم.

من ذا الذى يمكن أن يحيط بذلك كله من الناس؟ ومن الذى يتحدث فى ثقة وصدق عن يوسف فى السجن، وعن ذى النون فى الحوت، وعن إبراهيم فى دعوته للتوحيد، وعن نوح فى حديثه مع قومه، وعن حوار إبليس وكفره؟ . . لا أحد يمكن أن يقول ذلك كله . . ولا أحد يحيط بذلك كله . .

إنه الله وحده، لا شريك له، خالق الوجود والإله الحق المعبود.

عرش بلقيس، جوار اليتيمين والخضر وموسى يقيمان من أوده، موسى فى رحلته إلى مدين، عيسى وهو يتكلم فى المهد، عاد وثمود وقوم لوط، شعيب وهو يشترط على موسى فى مهر ابنته . . إلخ . . ، كل ذلك من الذى نبأ به، إنه العليم الخبير، إنه الحكيم القادر العظيم، إنه الذى يعلم السر وأخفى، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم . .

القرآن الكريم وما أدراك ما القرآن الكريم؟

من ذا الذى يكون عنده أدنى عقل ثم يستطيع أن يقول: أنه كتاب محمد أو من إبداعه وبلاغته.

هل يستطيع محمد أن يكون فى مثل هذا العلم الزاخر، وفى مثل هذا الشمول الباهر، وفى مثل تلك الإحاطة الواسعة، وفى مثل هذا الفكر المتألق العجيب؟

هل يستطيع بشر أن يحيط بأحاديث القرون، وأنباء العصور، وقصص الأمم، وجهاد الرسل فى تبليغ رسالة السماء إلى الناس؟

هل يستطيع إنسان أن يتحدث عن خلق الحياة والكون والسماء والأرض، والإنسان والوجود بمثل هذه الثقة واليقين والإدراك؟

كلا . . ثم كلا . .

إن القرآن الكريم كتاب الله الخالد.

إنه نبض الحياة، إنه إبداع الفكر، إنه الكون كله، إنه الدنيا والآخرة، إنه النور وما وراء النور.

يا حياة البشر، يا نهج الهدى، يا شريعة الكون.. يا نداء السماء..

إنه القرآن الكريم، وهو كتاب محمد عليه أجل الصلاة وأفضل السلام.. إنه المنهج السوى والشريعة القويمة، والبينة الواضح أداؤها.. إنه معجزة السماء، ومعجزة الوجود..

إن القرآن الكريم يذهل كل قارئ له من أى لون أو جنس أو دين أو فكر، بعظمة روحه، وجلال فكره، وسعة مشاهده، وطول مساحات تناوله. إذ يتناول الدنيا والآخرة، والسماء والأرض، والكون كله، ويتناول الإنسان والإنسانية، ويتناول المرأة والرجل والطفل والشيخ الهرم، ويتناول الأخلاق والسلوك والتشريع، ويتناول العبادة والتوحيد والدين، ويتناول كل مغاليق الحياة، وأسرار الطبيعة ومفاتيح الكون، ويتناول الإنس والجن، والنار والجنة والنشور والحساب ويتناول الروح والملائكة والأنبياء والرسل، ويتناول الشعوب والأمم، وموقفها من الرسالات السماوية المنزلة، ويتناول أحد أحداث التاريخ الكبرى: خلق آدم، طوفان نوح، تدمير بعض الحضارات القديمة، انشقاق البحر لموسى، معجزات عيسى، معجزة محمد ﷺ الكبرى.

القرآن ليس كتابا يكتبه إنسان، إنما هو كتاب الله عز وجل المنزل من السماء، نزل به الوحى الأمين، على رسوله الكريم، محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

كتاب لا يمكن لبشر أن يأتى بفكرة واحدة كفكر القرآن، أو بموضوع واحد كموضوعاته، أو يكشف سرًا واحدًا من أسرار الكون والطبيعة كما صنع القرآن الكريم.

كتاب أنزله الله مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم.

كتاب يصيبنا بالروعة والإعجاب والذهول حين نقرؤه.. ولو أن هذا القرآن أنزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله.

اقرأ قصة يوسف عليه السلام أو قصة موسى، أو قصة إبراهيم، أو نوح، أو آدم، وسل نفسك: من الذى وعى هذه الأحداث وسجلها؟ من الذى شاهد هذا التاريخ القديم وكتب عنه.

اقرأ مصارع عاد وثمود، وفرعون وجنده، وقارون وكنوزه..

واقرأ قصة خلق آدم، والحوار بين الله عز وجل وملائكته، والحوار بينه وبين حواء.. من الذى يمكن أن يكون قد شاهد هذا كله وكتب عنه..

أية عظمة هذه العظمة وأى جلال هذا الجلال وأى معجزة هذه المعجزة..

كل ذلك لا يترك فى نفسك أى شك فى أن القرآن كتاب الله الخالد ومعجزة محمد الباقية الدائمة، وإنه كتاب الرسالة المنزلة من رب العرش العظيم على محمد بن عبد الله، وإنه كتاب للإنسانية كلها، وكتاب للبشرية جمعاء، وإنه ليس فى مقدور أحد أن يتطاول إلى ذروته أو يحاول الوصول إلى قمته، وإنه كلام رب العالمين وإنه جاء هدى ونورا للإنسانية كافة.

فسلام عليه، وتحية إليه، خشوع وخضوع لعظمته وجلاله.

إن الإنسانية كلها لحرى بها أن ترفع رأسها إلى السماء وهى تذكر هذا الكتاب المحكم المبين.. كتاب الله العلى العظيم، الكتاب المنزل من السماء على سيد الخلق أجمعين صلاة الله وسلامه عليه دائما وأبدًا إلى يوم الدين.

د. محمد عبد المنعم خفاجى

نزول القرآن

(١)

القرآن الكريم كتاب الله الحكيم ومعجزته الخالدة، نزل به الروح الأمين على رسول الله الأمين، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، دليلاً على رسالته، وبرهانًا على صدقه فى دعوته، وصدق الوحى المنزل من السماء عليه، وعلى أنه الحق الذى هبط به جبريل وبلغه إليه.

كتاب الله المبين، ورسالته الباقية أبد الدهر، وشريعته السماوية المبلغة إلى نبى الإسلام، ورسول الإسلام، صلوات الله عليه.

ورمضان هو شهر القرآن، نزل فيه، وحببت إلينا تلاوته وقراءته فى كل ساعاته، والتعبد بحفظه وترديده فى كل أيامه وفى كل أوقاته.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفى نزول القرآن الكريم تفسيران:

الأول: أنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، فى رمضان، حسب الوقائع والحوادث، وهذا هو رأى ابن عباس فيما أثر عنه، فقد أنزل القرآن فى ليلة القدر جملة واحدة، إلى سماء الدنيا، وكان الله عز وجل ينزله على رسوله ﷺ بعضه فى إثر بعض. (١: ١١٦ الإتقان للسيوطى).

والثانى: أنه نزل من السماء على رسول الله منجمًا، نزل به الوحى الأمين، جزءًا جزءًا، على امتداد ثلاثة وعشرين سنة، على حسب الوقائع والحوادث.

ويشير القرآن الكريم إلى الحكمة من هذا التنجيم فى الآية الكريمة:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [سورة الفرقان: ٣٢].

وفى تاريخ نزول القرآن على رسول الله ﷺ روايات عدة:

١ ـ قيل: أنه نزل فى السابع من رمضان من العام الواحد والأربعين لميلاد، رسول الله ﷺ يوم الاثنين.

٢ ـ وقيل: بل نزل لسبع عشرة ليلة مضت من رمضان.

٣ ـ وقيل: بل نزل لثمانى عشرة ليلة مضت منه يوم اثنين.

٤ ـ وقيل: نزل لأربع وعشرين ليلة مضت منه (٢ : ٢٤ الطبرى).

٥ ـ وقيل: نزل لسبع وعشرين.

(٢)

كان رسول الله ﷺ يتعبد فى غار حراء شهرًا من كل سنة فإذا انتهى الشهر وانصرف من الغار كان أول ما يبدأ به قبل أن يدخل بيته أن يطوف بالكعبة سبعة أشواط. فلما كان الشهر الذى أراد الله فيه ما أراد من كرامته ورسالته من السنة التى بعث فيها خاتم المرسلين، كان ذلك الشهر هو شهر رمضان: خرج رسول الله ﷺ إلى حراء، كما كان يخرج كل عام، ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة الموعودة، التى أكرمه الله عز وجل فيها بالرسالة، جاءه جبريل ملك الوحى عليه السلام، بأمر الله تعالى: قال رسول الله ﷺ: فجاءنى جبريل، وأنا نائم، بنمط من ديباج، فيه كتاب، فقال:

ــ اقرأ

قلت: ما أنا بقارئ.

فضمنى حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال:

ــ اقرأ

قلت: ما أنا بقارئ، فغطنى، أى ضمنى ضمة شديدة، حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى، فقال:

ــ اقرأ

قلت: ماذا اقرأ

فقال: اقرأ باسم ربك، الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

فقرأتها، ثم انتهى، فانصرف عنى، وهببت من نومى، فكأنما كتبت فى قلبى، فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول:

يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل.

فرفعت رأسى إلى السماء أنظر، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم ولا أتأخر.. وجعلت أنظر إليه، وأصرف وجهى عنه فى آفاق السماء، فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك. فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى، فبلغوا على مكة، ورجعوا إليها، وأنا واقف فى مكانى ذلك، ثم انصرف عنى، وانصرفت راجعًا إلى أهلى، حتى أتت خديجة فقالت: يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا، فحدثتها بالذى رأيت، فقالت: ابشر يا ابن عم، واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة.

ثم قامت خديجة، فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة، وهو ابن عمها، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال ورقة

لها: قدوس، قدوس، والذى نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتينى يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة.

ولقى ورقة رسول الله وهو يطوف الكعبة، فقال لرسول الله: يا ابن أخى، أخبرنى ما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله، فقال له ورقة: والذى نفسى بيده، أنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى.

ثم انصرف رسول الله إلى منزله، فابتدئ رسول الله ﷺ بالتنزيل فى شهر رمضان، فى ليلة السابع والعشرين منه على أرجح الروايات.

وأول ما نزل من القرآن صدر سورة العلق: إقرأ باسم ربك... إلخ.. روى البخارى ومسلم ذلك عن عائشة أم المؤمنين، وعن أبى موسى الأشعرى وغيرهما.

وكان نزول القرآن بالرسالة العظمى على محمد بن عبد الله ﷺ شرفًا ومجدًا وعزًا وجلالاً لأمة محمد ﷺ كان معجزة كبرى خالدة على مر الزمان، باقية على مر الأيام.

* * *

فواتح سور القرآن الكريم

الآراء فى معانى ابتداءات سور القرآن الكريم كثيرة، والاختلافات حولها متعددة، أهى أسماء لله تعالى، أم هى أسماء للسور نفسها، أم هى حروف لا أسماء، وما معناها حينئذ، أم أن الله تعالى هو الذى ينفرد بعلم ذلك وعقل الإنسان عجز عن فهم أسرار الله تعالى فيها، أم هى رموز لمعان دينية أو صوفية.. إلخ.

اختلاف كثير لا حصر له، ولقد رجح من قبل الإمام جار الله الزمخشرى أن هذه الفواتح «عدة حروف هجائية صدر الله بها الكثير من سور قرآنه، ليقول للعرب: إن هذا القرآن المنزل على محمد من جنس كلامكم، مكوّن من مثل هذه الحروف الميسورة لكم، نستفتح بها الحديث معكم، فإن كنتم فى ريب من أُلُهية هذا الكتاب وقدسيته، فدونكم مجال التحدى والإعجاز، فأتوا بمثله إن استطعتم، وسبقه إلى ذلك الباقلانى.

ولقد عرض لى رأى جديد فى هذا الموضوع، وخلاصته هى: افتتح الله سبحانه وتعالى تسعا وعشرين سورة من سور القرآن بهذه الابتداءات الم - المر المص - كهيعص - طسم - طس - يس - حمعسق - حم - ص - ق - ن - طه - الر.. وهى كلمات مكونة من بعض حروف الهجاء، وتقرأ هذه الكلمات بقراءة الحروف الهجائية المركبة منها مع إسكان هذه الحروف، فمثل «ألم» تقرأ هكذا «ألف لام ميم» والحروف التى كررت فى هذه الفواتح هى أربعة عشر حرفا من حروف الهجاء البالغة تسعة وعشرين، ومجموع عدد الحروف المكررة ثمانية وسبعون حرفًا.

فما معنى بدء بعض سور القرآن بهذه الحروف المفردة أو المركبة؟ يريد الله عز وجل بذلك التنويه بالعربية التى هذه بعض حروفها، والإشادة بالقرآن الكريم ــ كتاب العربية الخالد ــ الذى تلك بعض آياته.

وكأن الله عز وجل يقول للناس: هذه هى اللغة العربية لغة البيان والفصاحة، وهذا هو القرآن كتاب الله المعجز وكتاب العربية المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

والصلة بين العربية والقرآن الكريم صلة معروفة لا يجهلها إنسان، فقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية، وجاء فى أعلى درجاتها بلاغة وبيانا وفصاحة، نزل على محمد النبى العربى العظيم، فكان معجزته الباقية الخالدة وعلى الأمة العربية التى اختارها الله لتكون جنود الله والحق ومحمد فى نشر الهدى والنور والتوحيد والعلم والثقافة فى العالم كافة، وكان للقرآن الكريم أثره الخالد فى وحدة العربية وحفظها ونشرها وذيوعها فى جميع الأرجاء، وفى تهذيب أساليبها وألفاظها، ورقى معاينها وخيالاتها وأفكارها، وفى السمو بأغراض الكلام فيها، إلى ما سوى ذلك من آثاره الباقية على العرب كافة. فكأن الله عز وجل يشير بذلك إلى أن هذا القرآن الكريم أنزله من عنده مجدًا للعربية وآدابها، وتكريمًا للعرب وسموًا بمنزلتهم فى قيادة الحياة الإنسانية، فالقائد الأعظم الذى اختير لنشر هداية السماء فى الأرض هو محمد صلوات الله عليه وهو عربى، وذلك الناموس الكريم والدستور الخالد الذى بيّن الله فيه رسالة محمد ودعا فيه إلى الخير والحق والعدل والتوحيد والطهر والإحسان هو القرآن وهو كتاب عربى مبين. وكأنه يوحى إلى هذه الأمة العربية: أن آمنوا بمحمد ودعوته، وبكتابى ورسالته، فهما فخر لكم على مر الأيام؛ ومجد سيطوق أعناقكم طول الأجيال والأحقاب.

وخلاصة رأيى هذا أن هذه الابتداءات تشير إلى الصلة الوثيقة بين القرآن والعربية، وإلى أن هذه الرسالة السماوية وهى آخر الرسالات نزل بها القرآن العربى المبين، واختير لنشرها محمد أكرم العرب والخلق أجمعين، وإلى أنها ستكون مجدًا للعرب والعربية طول العصور.

والصلة بين العربية والقرآن الكريم صلة معروفة لا يجهلها إنسان، لقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية، وجاء فى أعلى درجاتها بلاغة وبيانا وفصاحة، نزل على محمد النبى العربى العظيم، فكان معجزته الباقية الخالدة وعلى الأمة العربية التى اختارها الله لتكون جنود الله والحق ومحمد فى نشر الهدى والنور والتوحيد والعلم والثقافة فى العالم كافة. وكان للقرآن الكريم أثره الخالد فى وحدة العربية وحفظها ونشرها وذيوعها فى جميع الأرجاء، وفى تهذيب أساليبها وألفاظها، ورقى معانيها وخيالاتها وأفكارها، وفى السمو بأغراض الكلام فيها، إلى ما سوى ذلك من آثاره الباقية على العرب كافة. فكأن الله عز وجل يشير بذلك إلى هذا القرآن الكريم أنزله من عنده مجدًا للعربية وآدابها، وتكريمًا للعرب وسموًا بمنزلتهم فى قيادة الحياة الإنسانية، فالقائد الأعظم الذى اختير لنشر هداية السماء فى الأرض هو محمد صلوات الله عليه وهو عربى، وذلك الناموس الكريم والدستور الخالد الذى بيّن الله فيه رسالة محمد ودعا فيه إلى الخير والحق والعدل والتوحيد والطهر والإحسان هو القرآن الكريم.

* * *

نظم القرآن

إن نظم القرآن الكريم على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد. وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة، والبلاغة، والتصرف البديع، والمعانى اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم المأثورة، والتناسب فى البلاغة، والتشابه فى البراعة، على هذا الطول وعلى هذا القدر.

وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحيانًا الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف. وقد جاء القرآن الكريم، على كثرته وطوله، متناسبًا فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وبعد فإنك تجد فى كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك فى منظر بهيج، ومعرض رشيق، ونظم أنيق، غير متعاصٍ على الأسماع، ولا ملتوٍ على الأفهام، ولا مستكره فى اللفظ، يمر كما يمر السهم، يضئ كما يضئ الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على الطارق المنتاب، كالروح فى البدن، والنور المسيطر فى الأفق.

والغيث الشامل، والضياء الباهر ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ولقد كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر تحبها

وتعشقها وتمجيدها وترفع من منزلة الشاعر المحلق، والخطيب البليغ، تنوء بهما، وكانت أكثر ما يكون خطيبًا وشاعرًا وأديبًا، فإذا نبغ فى القبيلة شاعر، أو ظهر فيها فصيح، استبشرت وافتخرت وأقامت الموائد، واحتفلت بذلك الشيء العظيم، وأتت القبائل الأخرى فهنأتها وباركت شاعرها أو خطيبها.

كان ذلك فطرتها، لحياة التأمل والاستغراق والخيال فى الصحراء وللفراغ الكثير الذى كانوا فيه، ولحياة البادية التى تثير العاطفة وتستفز المشاعر، وتلهم الشاعرة، وتوقظ الخيال والبلاغة، وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستمرة، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون.

ومن ثم رأينا شعراء يلقى إليهم العرب القياد يصغون لقولهم ويسيرون وفق رأيهم ويُمضون ما يحكمون به بينهم. يضعون الشرف الغاية، ويرفعون الخامل الوضيع فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيمًا، وكان النابغة سفيراً للعرب فى قصور المناذرة والغساسنة، وحكمًا بين الشعراء فى سوق عكاظ، وكان الأعشى يغير شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب، ويفد على كسرى وملوك الحيرة وبنى غسان، ويسافر إلى الحبشة وكان قس بن ساعدة الإيادى الخطيب يفد على قيصر والغسانيين . . إلى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب للبلاغة والبلغاء. والشعر والشعراء. . وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب، ويضع الهدنة فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه.

فلما بعث محمد الرسول الأعظم ﷺ برسالته إلى الناس كافة نزل عليه كتاب مطهر من السماء، هدى ونوراً وبشرى، فيه دعوة إلى التوحيد، والطهر والخير والحق، وفيه ما شاء الله أن يبلغه البشر، من شئون الحياة، وأخبار الأمم، وقصص دعاة التوحيد: من المرسلين والأنبياء، وفيه كل ما يسعد الناس فى دينهم ودنياهم وآخرتهم، من تشريع، وعبادة، وأخلاق، وفضائل، وآداب، وتوجيه كامل إلى المثل العليا.

نزل هذا الكتاب الكريم، والنور الخالد، والوحى الصادق والدستور العظيم، فكان فى أعلى درجات البلاغة ومنازل الفصاحة، لا يدانيه بيان، ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من شعر، وخطب، ومحاورات، ومفاخرات، ومنافرات، ووصايا، ومثل، وحكمة، وكهانة.

وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم، فخروا ساجدين لفصاحته، مذعنين لبلاغته ومقرين بأنه نسيج وحده، وعلمٌ مفرد فى طبقته فى البيان.

بهر الشعراء منهم، فخرست ألسنتهم وسكتت شاعريتهم، وضاع إلهامهم كما يضيع السراب فى الصحراء، وعجبت الخطباء فيهم، فخرست مقاولهم، وصمتت ملكاتهم، وفقدوا مواهب البلاغة والقول.. وذهبت كل بلاغة فى تياره، وضلت الفطر الأدبية العالية، وفرت أمام أضواء نهاره.

ولكن زعماء الشرك أبوا الإذعان للدين، والإيمان برسالة سيد المرسلين فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام، يؤلبون الشرك على دعوة الإسلام.. فقالوا فى القرآن الكريم: هو شعر، هو سحر، وهى أساطير الأولين، ولو نشاء لقلنا مثل هذا، وإن هذا إلا اختلاق. ورموا محمدًا ﷺ بالجنون.

فتحداهم الله عز وجل، ورسوله محمد ﷺ بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة، بالقرآن الكريم، والكتاب العربى، قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [البقرة: ٢٣ ، ٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤)﴾ [هود: ١٣ ، ١٤].

وقال تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ، [الطور:٣٣ ، ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]. فسجل عجز البشر كافة وبيّن أنه لا يستطيع الإنس والجن ـ ولو تظاهروا ـ الوقوف أمام هذا التحدى ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة، التى هى فوق طاقتهم، لأنها بلاغة خالق البشر، ومصور الإنس والجن، الملك القادر والمدبر الحكيم: الله جل جلاله، وعلت قدرته، وعظمت حكمته. . ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر، وبرأ رسوله من أن يكون شاعرًا وساحرًا، ومن الافتراء والجنَّة، ومن الكذب والخيال قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ١ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ [الحاقة: ٤١ ـ ٥١].

وهكذا رد الله عز وجل عليهم وبيّن كذبهم وافتراءهم، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به، وبيّن أنه منزل من السماء، وأنه معجزة محمد بن عبد الله الخالدة وتحداهم ـ أن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين ـ إلى الإتيان بمثله أو بعشر سور مفتريات من مثله أو بسورة واحدة فعجزوا أمام التحدى، وباءوا بالخزى والهوان والذلة، وصغرت نفوسهم وأقدارهم، فلم ينطقوا بقول، ولم يجاروا بلاغة القرآن فى آية أو آيات أو سورة أو سور، واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة، لا فرق بين خطيبهم وبليغهم وشاعرهم، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم.

ثم امتدت الأجيال، وتوالت العصور، والقرآن يتردد صداه فى المشارق والمغارب فلم نر رجلاً وقف يتحدى بلاغة القرآن، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان.

واقرأ إن شئت بلاغة البلغاء، وفصاحة الفصحاء، ثم انظر بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل، فى ذلك فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين. وتعلم أن القرآن يخالف نظم كلام الآدميين.. وأراد مسيلمة الكذاب فيما يروى أن يقول كلامًا، فخزى وعجز، وبان عليه العمى والحصر، وباء بالخسران، وسوء المنقلب، وأين يقع قوله: «والليل الدامس، والذئب الهامس، وما قطعت أسيد من رطب ولا يابس..» وقوله: «المبديات زرعًا، والحاصداث حصدًا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا، إحالة وسمنا، لقد فضلتم أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر..» وغير ذلك من كلامه من ذلك النظم القرآنى العجيب، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم يؤمنون إيمانًا صادقًا، بأن لا سبيل إلى الوقوف فى تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه، وأن ذلك كله شىء انفرد به وحده، وأنه كلام الله وكتابه، وأن نبوة محمد ﷺ إنما بنيت على هذه المعجزات، وذلك الكتاب الحكيم المبين، الذى عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله.. وستمضى وتتوالى الأجيال وهو يضئ كما يضئ الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، ويفتن الألباب والعقول ببلاغته وجلاله وعظمته وحكمته وروعته، وصدق الله العظيم ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

* * *

(١)

أنزل الله على رسوله ﷺ، فكان حجته الدامغة وقوته وعدته على حين لا عدة له ولا قوة، فصعقوا، وزلزلوا، وأخذوا، وأذعنوا حين سمعوا آياته الكريمة، وأسلوبه القوى، وبيانه الخلاب، وعباراته الآخذ بعضها بعجز بعض.

والثابت المعروف أن العرب إنما أعجبوا بالقرآن، ودهشوا وتحيروا لبلاغته التى عقلت ألسنتهم، وتأثيره السحرى الذى ملك ألبابهم، وأسلوبه الذى عظم عن أساليبهم، وروحانيته الصافية التى أشعرتهم بقيمهم، وحاكمتهم إلى أحاسيس الخير فى نفوسهم، وفتحت أمامهم الآفاق لمثل عليا وحياة كريمة، (فالذى بهرهم وملكهم وعقل شياطين السوء فى نفوسهم إنما هو أسلوب القرآن ومعناه وغرضه ومرماه)، وإذا أردت مصداقا لهذا حتى تبصره بعينك وتتقراه بيدك، فها هو ذا أبو جهل بن هشام يقول فى ملأ من قريش: «قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم لنا رجلاً عالما بالشعر والكهانة والسحر، وكلمه ثم أتانا ببيان عنه، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر، وعلمت من ذلك علما وما يخفى علىّ أن كان كذلك، فقالوا آته فحدثه»، ثم أتاه والشر ينبعث من عينيه وشياطين السوء تلعب برأسه. فقال: يا محمد أأنت خير أم هاشم؟ أأنت خير أم عبد المطلب؟ أأنت خير أم عبد الله؟ فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا، وتسفه أحلامنا، وتذم ديننا، فإنْ كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت وإن كنت ترد الباءة زوجناك عشر نساء من أى بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك... إلخ، يقول عتبة هذا ورسول الله ﷺ ساكت، فلما فرغ من حديثه قرأ عليه محمد ﷺ قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٢ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ۝١٤﴾ [فصلت: ١-١٤].

وهنا، وهنا فقط، ارتعد جسم عتبة واسّاقطت نفسه رعبًا وفزعًا وصاح قائلا: نشدتك الله والرحم يا محمد أن تمسك، وأمسك بفم الرسول.

فهذا رجل ملكت عليه بلاغة القرآن أقطار نفسه فلم يتمالك من أن يصيح مناشدًا الرسول ﷺ أن يكف، فهل كان الذى راعه وروَّعه وأشاع الرعب والوجل فى قلبه إلا هذه القوة الجازمة المصممة وذلك الأسلوب الحاسم الرصين، وذلك البيان الخلاب، وتلك البلاغة الدافقة التى تحمل فى ثناياها الصدق والصرامة والقوة والإعزاز؟

لقد رجع عتبة إلى أهله فلم يخرج لقريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ فانطلقوا إليه قالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنت قد صبأت فغضب، وأقسم لا يكلم محمداً أبدا، وهذه عصبية قاتمة مظلمة تعمى القلب وتظلم البصيرة، ثم قال: لقد كلمته فأجابنى بشىء ما هو بشعر ولا كهانة ولا

سحر، ولما بلغ «صاعقة عاد وثمود» أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

فمن هذا الحديث وأمثاله نعلم يقينًا أن القرآن قد بهر القوم نُوره، وأغشاهم ضوؤه وعقل ألسنتهم بيانه، واستبد بقواهم صوغه وإحكامه، وخلب ألبابهم قوته ونظمه ولقد كانوا مع ذلك يناهضون النبى ﷺ ولا يذعنون، ويكابرون ولا يؤمنون، يقول بعضهم: إنه سحر، وآخر إنه شعر، وغيرهم يقولون: إنه افتراء.

فتحداهم إذ ذاك رب العالمين بأن يأتوا بمثله إن كانوا قادرين، فلما عجزوا تحداهم بعشر سور، فلما انكشفوا طالبهم بسورة واحدة، فملكهم البهر، وانقطع بهم الجدل، ولم يجدوا بعد إلا الإذعان وإلا الإيمان.

فما الذى يا ترى أذعنوا له، وآمنوا من أجله؟

فى القرآن أسرار كثيرة، وقوة هائلة، كل شىء منها كاف وحده لأن تدين له النفوس، وتخضع لحكمه القلوب والعقول.

١ - ومن هذه الأسرار: ما فى القرآن من الإخبار بالمغيبات مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه، فوقع كما أخبر به، وجرى على وفق ما وصف كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧]، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. [النور:٥٥]، وقوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الروم ٢ - ٤]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وقوله تعالى فى شأن أهل بدر وقد نزلت الآية بمكة قبل الوقعة بسبع سنين ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:٩٥]، ولما نزلت بشر

النبى ﷺ أصحابه بذلك، وكان المستهزئون نفرًا بمكة يؤذنون الرسول ﷺ، ويتعرضون له، وينفرون الناس عنه، فهلكوا. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فحفظه الله وحرسه مع كثرة من أحبوا ضره، وقصدوا قتله ﷺ.

٢ ـ ومن هذه الأسرار أيضا: ما فيه من أخبار الأمم الماضية، والقرون السالفة، والشرائع البائدة، مع الأمية الظاهرة للرسول الكريم، ولم يكن أحد يستطيع أن يلم بشىء من ذلك إلا بعض الأفذاذ من أحبار أهل الكتاب فقد كان الواحد منهم يقطع العمر فى تعلم بعض القصص دون أن يحيط بجملة صالحة منها، فيورد النبى ﷺ هذه الأخبار على وجهها الصحيح، وقد علم العرب أن الرسول ﷺ أمى لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة هذه الأخبار، ولم يعهد عنه أنه تتلمذ لأحد من الأحبار.

ومن هذه الأخبار كل ما ورد فى القرآن من قصص الأنبياء، وكثيرا ما تعرض له اليهود والنصارى بالسؤال عن أخبار أنبيائهم، وما ورد فى توراتهم وإنجيلهم، فيأتيهم بالجواب الصادق، والحجة الدامغة، حيث لا يستطيعون معارضة ولا مناقضة.

وكان نتيجة لهذا أن صرح أكثرهم بصحة نبوته، وصدق مقالته، واعترفوا بحسدهم إياه، وعنادهم له، ومن لج فى الخصومة، وادعى كذبه فيما جاء به من أخبارهم قيل له: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] فكان ذلك من أعظم التقريع والتوبيخ لهم، قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥].

٣ ـ ومن ذلك أيضا: حسن تأليفه، وتخير ألفاظه، والتئام كلمه، وتناهيه فى البلاغة، إلى الحد الذى يعجز الخلق عنه، ولا يستطيع أن يكشف عن خصائصها باحث، ويكفى أن تعلم أن علوم البلاغة، والنقد قد وضعت للكشف عن أسرار هذه البلاغة ومظاهرها، ثم هى لا تزال بعد مضى أكثر

من عشرة قرون فى أول الغاية، يضاف إلى ذلك شرف معانيه، وسمو حكمه، وجلال دعوته، وصدق حجته، وعمق منزعه، وعلو تصويره.

فهو ليس كتاب قصص أو تسلية أو أدبا أو حكمة أو فلسفة أو تاريخا أو اجتماعا وإنما هو خلاصة لكل ما فى الحياة من ثقافة وحقائق ومعارف وعلوم، فضلا عن أنه منهج كامل للحياة الروحية والاجتماعية الكاملة الصحيحة السليمة.

وما أجدرنا أن نقول: إنه كتاب الإنسانية كافة وصحيفتها التى تستقى منها فى كل حين، ولقد عجز الناس عن معارضته، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، فبهتوا ووقفوا أمامه مُشدوهين حائرين مقرين بالعجز، مقصرين عن الغاية.

وإن البحث فى هذا، وتفصيل القول فى فصاحة القرآن وبلاغته وسلامة تأليفه من الاضطراب، هو الذى شغل العلماء أجيالا طويلة يكشفون عن هذه الأسرار، وكم تكلموا فأطالوا فى تبيان قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١]. وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وانظر إلى قوله تعالى فى وصف أهل النار: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢].

وقوله تعالى فى وصف النار: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ١٢ ـ ١٤].

وإلى قوله تعالى فى وصف أهل الجنة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴿١٠٢﴾ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٣].

وهكذا القرآن جميعه سبيكة واحدة فى جمال الرونق، وكمال البيان، وإحكام الصنعة، وتبيان الغرض، فليس أمامنا إلا أن نحيلك على المصحف تقلب صفحاته لترى كيف سيقت الحكمة، وكيف ضرب المثل وكيف دمغت الحجة، وكيف تمثلت الصنعة، وكيف وضح الدليل؟ وهو يعد أعظم دستور فى شرائع الإنسانية، وأروع كتاب أثر فى تاريخ البلاغة الأدبية، ولا تزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والإكبار، كلما سمعت آية من آياته، أو سورة من سوره، ولا تزال الموازنة بينه وبين ما سواه من الآثار الأدبية والعقلية مستحيلة ممتنعة، وما ذاك إلا لأنه كتاب الله الحكيم، ومعجزة محمد ﷺ الباهرة الخالدة.

وقد عرضنا لك هذه الأسرار المتقدمة، والمزايا الظاهرة فى القرآن الكريم دون أن نفاضل بعد بينها، ودون أن نرجح بعضها على بعض، فأى هذه الأسرار أحق بالتقديم وأجدر بالاعتبار.

فإذا ما أردت الجواب الصحيح عن ذلك، فإننا لا نتردد فى تفضيل هذه الميزة الثالثة المتأخرة وهى الفصاحة، وقوة البيان، ومتانة النسج، لأن هذا السر هو الذى يحسن فى التحدى للعرب الذين عرفوا باللسن، واشتهروا بقوة البيان، ثم هو الوصف الباقى مع القرآن ما بقى الزمان، لأن الإخبار بما لم يكن ليست له قيمة ولا وزن إلا قبل حدوثه، فأما بعد ذلك فقد ذهبت روعته، وأصبح مُنْكِرُه فى حل من الإنكار، وفى حاجة إلى إقامة الدليل عليه من جديد، فنقول له: إن الإخبار قد سبق الوقوع وتَقَدّمه، وهذا ثابت مقطوع به، فتكون الحجة محتاجة إلى حجة أخرى، والبرهان متوقفًا على غيره، وعهدنا بالعرب أنهم كانوا مولعين باستطلاع الغيب، وكان من بينهم ما يدعى علم ذلك من الكهان الذين كانوا يلقون الكلام على عواهنه، فيصدق منه بعض ويكذب بعض، فلو تحداهم النبى بذلك لوجد من هؤلاء من يقول: أنا أخبرت بكذا. فكان كما قلت، وهذا ضعف فى الحجة، ووهن فى الدليل، لا نقبله فى القرآن، والاستدلال به على هذا الأمر العظيم وهو صدق محمد ﷺ.

وأما الإخبار بالأمور التى وقعت منذ العهود السحيقة، وأخبر بها النبى ﷺ من قصص الأنبياء وحادث أهل الكهف. أو شأن ذى القرنين. فإن هذه أخبار كانت معلومة من بعض جوانبها أيام النبى ﷺ وإن كان علمها مقصورًا على أهل الكتاب، فلو شاء أن يعارض مبطل، فيقول: إن محمدًا قد استطاع الوصول إلى ذلك بوسائله الخاصة، وحسن تأتيه للأمور فإن هذا القول يفت فى الحجة ويضعف من شأنها، وليس بمقبول أن ينال الوهن والضعف حجج الأنبياء من أى ناحية تكون، ولا يسعنا إزاء ذلك إلا أن نصيخ ونعترف بأن الإعجاز كان بهذا السر الباقى على الأيام، وهو البلاغة الساطعة حجتها، الباقية آيتها بقاء الليل والنهار.

وقد رأينا من الباحثين فى هذا الموضوع من يقول: إن إعجاز القرآن فى معناه، وعلو حكمته، ودقة تشريعه، وشمول الفكرة فيه لما لم يكن معروفًا عند العرب ولا مطروقًا لهم، ولا هو تحت سمعهم وبصرهم، فلم يتناولوه بالتفكير، ولم يعالجوه بالبحث.

وهذا الوجه لا نراه ينهض وحده، ولا يستطيع الوقوف على قدميه، دون ضميمة غيره إليه، إذ يكون التحدى به تحديًا بما لم تجر به العادة والعرف فى التحدى، فلم يعهد عن العرب أنهم أمة علم، ولم يدعوا ذلك لأنفسهم، ولم يقولوا إنهم أهل تفوق فى التشريع، حتى يقرعوا بالحجة، ويرموا بالدليل فى هذا الباب، بل المنقول عن العرب أن الذى راعهم وبهرهم إنما هو السبك والنهج وقوة البيان، فهذا قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] لم يصعق له سامعه، ولم يخر له ساجدًا إلا من ناحية الصوغ وبراعة التأليف، وإذا نظرنا إلى الحكم الصادر منهم بعد روية وتفكير وتقدير، وهو أن القرآن شعر أو سحر عرفنا الناحية التى راعتهم، والطريقة التى بهرتهم، وهى ناحية التأثير والاستحواذ، لا ناحية دقة المعنى، وبُعد المراد.

وخير ما يثبت هذا الجانب (وهو أن إعجاز القرآن من جهة البلاغة والبراعة والتأليف) ما رووه من أن ثلاثة من بلغاء قريش الذين لا يعدل بهم فى البلاغة أحد، وهم الوليد بن المغيرة، والأخنس بن قيس، وأبو جهل بن هشام اتجهوا ليلة يسمعون القرآن متسللين من رسول الله ﷺ وهو يصلى به فى بيته إلى أن أصبحوا فلما انصرفوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا على ذلك، وقالوا: إنه إذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه، واستمعوا إلى ما يقوله، واستمالهم وآمنوا به، فلما كان فى الليلة الثانية عادوا أخذ كل منهم موضعه، فلما انصرفوا جمعتهم الطريق، فاشتد تكبرهم وتعاهدوا وتحالفوا أن لا يعودوا، فلما تعالى النهار جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس بن قيس، فقال: ما تقول فيما سمعت من محمد؟ فقال الأخنس: ماذا أقول؟ قال بنو عبد المطلب: فينا الحجابة، قلنا: نعم، قالوا: فينا السدانة، قلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم، يقولون: فينا نبى ينزل عليه الوحى، والله لا آمنت به أبدا.

فما صدهم إلا العصبية البغيضة كما ترى، وكما حكى الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهناك آراء أخرى فى وجوه الإعجاز، فمنهم من يقول: إن وجه الإعجاز ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة، والبدائع الرائعة فى الفواتح والمقاصد والخواتيم فى كل سورة، وفى مبادئ الآيات وفواصلها، ومنهم من يرجع الإعجاز إلى خلو القرآن من التناقض، واشتماله على المعانى الدقيقة.

وقد عرض أبوبكر الباقلانى فى كتابه «إعجاز القرآن» لإعجاز القرآن وذكر بعضا من آراء العلماء فيه وكذلك فعل السيوطى فى كتابه «الإتقان» ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم من العلماء الأفذاذ.

وقد بقى من الآراء فى إعجاز القرآن قول منسوب إلى إبراهيم النظام من شيوخ المعتزلة، ومن قبله إلى الجعد بن درهم، أستاذ مروان بن محمد وهو قول «بالصرفة».

ومعنى هذا أن القرآن لا يرتفع من الناحية البيانية عن طاقة البشر وقدرتهم لولا أن صرفهم الله أن يأتوا بمثله، وأبطل قدرتهم عليه.

والذى حدا بالنظام إلى هذا الرأى هو أنه يرى أن هذا الطريق أدل على التأييد من الله لرسوله ﷺ، إذ كان العجز مع القدرة، واستحالة الممكن، أدل على إرادة الله لنصرة نبيه.

وهذا تلبيس باطل من القول وزور، ولا يليق الأخذ به، فهو ينتزع من صاحبه الاعتراف بأن القرآن فى ذاته ممكن المعارضة ولا مزية له ولا فضيلة يمتاز بها على كلام العرب، وإن عجزهم عن محاكاته كان لسبب خارج عن ذاته، محدد بالمدة التى شاءت القدرة الإلهية أن تحد فيها من عزم العرب عن معارضة القرآن، وهذا كله نقص صارخ ينزه القرآن عنه.

ولو كان ما ادعاه النظام يمكن وقوعه وحصوله، ما استعظم العرب فصاحة القرآن وما تعجبوا من قوة سبكه، ومتانة وصفه، وعلو كلمه، بل كان الأمر الذى هو فى حاجة إلى العجب، هو عجزهم عن المعارضة مع قدرتهم عليها. [للبحث صلة].

(١) ما رواه الإمام القرطبى عن الريان بن حرملة ص ٣٣٨ ج ١٥ ورواه عن أبى بكر بن الأنبارى عن محمد بن كعب القرطى ـ المجلة.

(٢) الحق هو الحق، قبل وقوعه وبعد وقوعه، فإذا أنكره الكافرون قبل وقوعه وبعد الإخبار به كغيب، فإنه لا حجة لهم إذ يثبت الواقع صدقه بعد انقضاء الخبر بمدة طالت أم قصرت، بل وقوع الحدث بعد زمن من الإخبار به دليل صدق من أخبر بالغيب، «المجلة».

(٢)

نزل القرآن الكريم بأسلوب بهر العرب جماله، وخلب ألبابهم سحره، وملك نفوسهم رونقه، وما اشتمل عليه من روعة اللفظ، وبراعة التصوير، ودقة الوصف، وسمو البيان، وروعة الأداء، لم يضارعه أسلوب قبله ولا بعده من كلام البشر، فلا هو شعر موزون، ولا هو سجع ملتزم، ولا هو مزاوجة، ولا هو نثر مرسل إرسال الحديث، ولا هو خطابة ولا وصية ولا نصيحة ولا حكمة من حكم الكهان وسجعهم. وإنما هو نظام بديع، وتأليف حسن، ومنطق عذب، ونظم محكم، فصل بين أجزائه تفصيلا، نشعر النطق عند انتهاء أى فاصلة منه بانتهاء القول وتطمئن إلى الوقوف عليها ولو تعلق بما بعدها.

جاء القرآن على هذا النظام الفريد والنسق الغريب: من النضارة والجلالة والإشراق وحسن التقسيم ودقة الصوغ وسرعة النفاذ إلى أعماق القلوب فدهش العرب وتحيروا وأطالوا النظر وأداموا الفكرة وأكثروا الالتفات إلى ما فيه من حسن رائع وجمال بارع وقوة أخاذة وبلاغة نفاذة وسحر ساحر وقالوا: ما هذا الذى يطالعنا به محمد كل يوم أهو كهانة كاهن أم شعر شاعر أم سحر ساحر، أم عرض لأساطير الأولين؟

ولكنهم ما دروا أن هذا الذى بهرهم وراعهم إنما هو كلام رب العالمين صاغه قلائد نادرة الفحول وناهيك بهذا الأسلوب الفريد فى طابعه الغريب فى مسلكه الوحيد فى تأتيه ومداخله. تتنوع طرقه فى الإقناع بتنوع طبائع المخاطبين به.

فمن قصص على أشكال مختلفة فى إطناب أو إجاز أو توسط وبفواصل طوال أو قصار أو متوسطة ومن استدلال على حقائق الأمور بالآثار المشاهدة فى خلق السماوات والأرض أو ضرب الأمثال أو بقياس الغائب على الحاضر وبالبرهانات النظرية ومن تصريح وتكرير إلى كناية وتعريض، كل أولئك

مصور بصورة فوق طاقة البشر من الإحكام والبلاغة وصحة الحكم وانتفاء التناقض والاختلاف، مع هذا الطول الواضح، ومن المعلوم أن الواحد من البشر إذا أجاد فى فن من الكلام قصر فى غيره أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيراً.

ولقد كان العربى الموغل فى عناده الممعن فى عتوه وفساده يسمعه فيدخل على قلبه بلا إذن ويتمكن من نفسه دون جهد، وهكذا كل من يتروى وينصت إلى هذا الكلام العالى الطبقة يلمح فيه سمو البلاغة وإعجاز البيان ونضارة الأسلوب، ويمكننا أن نرجع سمو القرآن وسحره وعظمته الأدبية وقوته البيانية إلى ما فيه من قوة التصوير ودقته وإحكامه فليس هناك تصوير أجمع لأطراف المعنى وأشد مداخله للإحساس وأبلغ إثارة للمشاعر من تصوير القرآن الكريم.

يصور نعيم المتقين وسعادة المؤمنين فيحس المرء برد الراحة يدخل إليه ويشعر بالغبطة والسرور تملأ جنبيه، وبالسعادة تسرى فتحل أقطار نفسه فتفعمه طربًا ونشوةً وروحًا.

ويصور الشقاء الذى سيحل بالطغاة والعذاب الذى أعده الله للعصاة والمذنبين فترعد الفرائص وتضطرب المفاصل وتختلج الأعضاء ويزايل النفوس ما يسكنها من طمأنينة ووقار واتزان.

ومن ذا الذى يسمع قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١١ - ١٦] ثم لا يشعر بالراحة والنعيم المقيم أولا، ثم لا يستحضر الشقاء المقضى، والعذاب الممضى آخراً ؟ ما ذاك إلا للبراعة الآخذة بمجامع القلوب والتصوير الدقيق بين الرغبة والرهبة.

ومن ذا الذى لا تهزه النشوة، ولا يأخذه الإعجاب حين يستمع إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

ثم انظر إلى ما ينبث فى جوانب القرآن، ويسرى فى تضاعيفه من مختلف الحكم التى تأخذ بالألباب والتى بلغت من الصدق والدقة مبلغا لا ترقى إليه حكمة، ولا يتطاول دونه مثل وهل حملت العربية فى صحائفها أدق وأروع فى تصوير الكثرة الفاشلة والجماعة الخادعة المتفرقة من قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر: ١٤] وهل تجد أدبا يروعك، وحكمة تستحوذ على أقطار نفسك من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وهل يصور الطبائع الإنسانية واعتزاز كل جماعة بما عندهم وفرحهم بما لديهم إلا قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، وفى القرآن الكريم كثير من الآيات على هذا النسق وهذا الغرار مثل قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]، وقوله: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١]، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقوله: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

قيل للحسن بن الفضل: هل تجد فى كتاب الله: خير الأمور الوسط فقال نعم، فى أربعة مواضع: ﴿لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، و﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، و﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]، و﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ١١٠].

قيل فهل تجد من جهل شيئا عاداه: قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس:٣٩]، قيل فهل تجد ليس الخبر كالعيان؟ قال: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦].

هذا إلى الأمثال المضروبة التى لا ترى كوقعها وحسن انطباقها، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤، ٢٦٥]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦].

وأن تعجب فعجب ما يطالعك به القرآن بين دفتيه من طريقى الإيجاز والأطناب فلكل مواطن ومقامات.

ففى مواطن الإطناب تجد القرآن يعطيك صوراً كثيرة منه ويشقق لك ألوانًا تميل إليها النفس ويحبها القلب، ويهتز لها الوجدان.

وإن فيما حكاه الله من قصة يوسف عليه السلام وما فيها من ألوان العظات والعبر، وما تمثل من انفعالات النفس البشرية بألوان الرضا والغضب وأنواع الحب والبغض وما طبعت عليه من إيثار النفس وشدة الغيرة فى كل ذلك تلمس أثر الإطناب واضحًا جليًا فى صدق الإحاطة ودقة التصوير بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف: ٣ - ٥].

وفى مواطن الإيجاز - وهو فى الكلام من أدق مسائله وبه يتفاضل البلغاء، وفيه يتنافسون وتبرز أقدارهم وتتضح قيمتهم الفنية وخصائصهم الأدبية - نجد القرآن قد بلغ الغاية والشأو الذى لا يبارى شأنه فى جميع مناحى القول، وقد أحكم وضع اللفظ بإزاء المعنى، ولمح بالإشارة العابرة إلى ما لا يتناهى من المعانى السامية الكريمة حتى يكاد السامع يخر ساجدا لهذا البيان الخلاب والأسلوب المشرق والعبارة السافرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[فصلت: ٣٠] فاستقاموا كلمة واحدة تفصح عن الطاعات كلها فى الائتمار والانزجار ولو أن إنسانا عبد الله مائة سنة ثم سرق حبة واحدة لخرج بسرقتها عن حد الاستقامة.

ومن أمثلة الإيجاز فى القرآن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] أبانت الآية عن اعتزالهم للناس وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن وأخذهم فى تزوير ما يلقون به آباهم عند عودتهم وما يوردون عليه من ذكر الحادث.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، ولا يستطيع بليغ مهما بلغ من قوة البيان أن يعبر عن هذا المعنى بهذه الألفاظ حتى يصل مقطوعها ويبسط مجموعها ويظهر مستورها فيقول: إن كان بينك وبين قوم هدنة فخفت منهم خيانة، أو نقضا فاعلمهم إنك نقضت ما شرطت لهم وآذنهم بالحرب لتكون أنت وهم فى العلم بالنقض سواء.

ومنه قوله : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] جمع فيه جميع مكارم الأخلاق لأن فى العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين وغض الطرف عن الحرمات والتبرؤ من كل قبيح لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو ملابس شيئا من المنكر. وفى الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مقابلة السفيه بما يفسد الدين ويسقط القدرة.

ومن الأسلوب القرآنى أسلوب الكناية ومقامها فى التعبير واضح مشهور،

وقد ورد فى القرآن منها ما لا يستطيع أن يدانيه بليغ أو يتعلق بغباره ناثر أو شاعر، فمن ذلك ما ورد فى صفة المسيح عليه السلام وأمه من قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] فكنى بأكل الطعام عما يخرج من السبيلين لأنهما بسبب منه إذ لا بد للآكل منهما. ومن الكناية قوله: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١] أى لفروجهم، ومنها قوله ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣] وكنى بالملامسة عن الجماع إذ لا يخلط منها غالبا كما كنى عن الجماع بالسر فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣] كنى بالنعجة عن المرأة كعادة العرب فى ذلك ولذلك لم يذكر القرآن امرأة باسمها وكنى عن زليخا بامرأة العزيز وإنما ذكر مريم باسمها تأكيدًا لأن عيسى بلا أب، وإلا أنسب إليه، ومن كناياته أيضا قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨] كناية عن النساء بأنهن ينشأن فى الترفه والتزين الشاغل عن النظر فى الأمور ودقيق المعانى. ومنها أيضا قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] كناية عن سعة الجود والكرم.

ومما يلابس الكناية فى هذا المقام ويؤدى مؤداها فى المبالغة التعريض. فقد وقع فى القرآن كثيرا ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾[التوبة: ٨١] فإنه لم يقصد إفادة ذلك لأنه معلوم بل إفادة ما يتضمنه ويشير إليه وهو أنهم يردونها ويجدون حرها إن لم يجاهدوا.

ومن التعريض قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢] أى وما لكم لا تعبدون بدليل قوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢] وكذلك قوله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] خوطب النبى وأريد غيره لاستحالة الشرك عليه شرعًا، وكذلك قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] تعريض بذم الكفار وأنهم فى حكم البهائم التى لا تتذكر والتعريض والكناية نادران فى كلام العرب لدقة استعمالهما ولكنهما فى القرآن كثير.

وهناك لون جديد فى أسلوب القرآن وهو التكرار الذى يجئ فى بعض آيات القرآن فتختلف فى طرق الأداء وأصل المعنى واحد فى العبارات المختلفة كالذى يكون فى بعض قصصه لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها أو فى بعض عباراته لتحقيق النغمة وترديد المنة والتذكير بالمنعم واقتضاء شكره إلى ما يكون فى هذا الباب.

قال الرافعى فى «تاريخ آداب العرب» وقد خفى هذا المعنى «التكرار» على بعض الملحدة وأشباههم ومن لا نفاذ لهم فى أسرار العربية ومقاصد الخطاب والتأتى بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن وقالوا: إن هذا التكرار ضعيف وضيق من قوة وسعة وهو ـ أخزاهم الله ـ كان أروع وأبلغ وأسرى عند الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيبا، وفى بعض ذلك التكرار معنى آخر فطن إليه بعض علمائنا ولم يكشف لهم عن سره وأول من نبه عليه الجاحظ فى كتاب «الحيوان» إذ قال: ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى والحذف وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلام أى كأن ذلك مبالغة فى إفهامهم وتوسع فى تصوير المعانى لهم وتلوينها بالألفاظ إيجازًا فى موضع وإطنابًا فى موضع إذ كانوا قومًا لا سليقة لهم كالعرب وليسوا فى حكمهم من البيان فلا يمضى كلامهم لسنته بلا اعتراض من تنافر التركيب وثقل الحروف وجفاء الطبيعة اللغوية فلهذا ونحوه كان لابد فى خطابهم من التكرار والبسط والشرح بخلاف العرب فإن الخطاب يقع إليهم على سنن كلامهم، من الحذف والقصد إلى الحجة والاكتفاء باللمحة الدالة وبالإشارة الموحى بها.

وهناك شىء آخر نراه فى أسلوب القرآن، وهو المطاوعة واللين فى التقليبَ، والمرونة فى التأويل بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التى

تخرج بها طبائع العصور المختلفة وتظهرها الدهور المتعاقبة فهو يفسر فى كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه، واختلاف وتمحيص وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة وفهمه كذلك من جاء بعدهم من أهل العلوم وأثبتت العلوم الحديثة كثيرا من حقائقه التى كانت مغيبة.

قال الرافعى: انظر مثلا فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٥، ١٦] فهذه الآية سمعها العرب فبعضهم فهم من نسقها أن القمر نور والشمس نور ولكن اختلف اللفظان ليكون فى ذلك تنويع بليغ، ويعلو آخر عن هذه المنزلة فيفهم أن القمر أضعف نورا من الشمس لأن هذه عبر عنها بالسراج ولفظ السراج يحضر فى النفس شعاعه المتقد، فكأنه نور منبعث من نار، ويدقق بعضهم فيرى أن الغرض هو التعبير عن الشمس بأنها تجمع إلى النور الحرارة، ولذلك فائدة فى الحياة ولهذا فائدة أخرى والنور نفسه لا نكاد نحس فيه الحرارة بل إنما نحسها فى السراج ووهجه.

وماذا نقول فى أسلوب القرآن الكريم، وقد حوى البلاغة والإعجاز فى شتى جوانبهما لأنه كتاب الله الحكيم وبيانه المعجز.

* * *

من قضايا الإعجاز

(١)

كانت العرب أمة مفطورة على الأدب والشعر والبلاغة تحب ذلك، وتعشقه وتجيده وتستجيده، وترفع منزلة الشاعر أكثر ما يكون خطيبًا وشاعرًا وأديبًا، فإذا نبغ فى القبيلة شاعر، أو ظهر فيها خطيب، استبشرت وافتخرت، وأقامت الموائد، واحتفلت بذلك الشىء العظيم، وأتت القبائل الأخرى فهنأتها، وباركت شاعرها أو خطيبها. كان ذلك فطرتها لحياة التأمل والاستغراق والخيال فى الصحراء، وللفراغ الكثير الذى كانوا فيه، ولحياة البادية التى تثير العاطفة وتستفز المشاعر، وتلهم الشاعرية، وتوقظ الخيال والبلاغة، وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة، فكانت حاجتهم إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون..

ومن ثم رأينا شعراء يلقى إليهم العرب القيادة، يصغون لقولهم، ويسيرون وفق توجيههم، ويمضون ما يحكمون به بينهم، يضعون الشريف النابه، ويرفعون الخامل الوضيع، فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيمًا، وكان النابغة سفيرًا للعرب فى قصور المناذرة والغساسنة وحكمًا بين الشعراء فى سوق عكاظ، وكان الأعشى يفد على كسرى وملوك الحيرة وبنى غسان ويسافر إلى الحبشة، ويرفع الصعلوك، ويخفض من السادة والنابهين، وكان قس بن ساعدة الإيادى يفد على قيصر والغسانيين. وهذا كله مظهر من مظاهر سيادة الشعراء والبلغاء فى المجتمع الجاهلى القديم، وتقدير هذا المجتمع لبلاغتهم وأدبهم، وبحسبنا أن الشاعر كان يعلن الحرب ويضع الهدنة فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه.

فلما بعث محمد صلوات الله عليه برسالته إلى الناس كافة، نزل عليه كتاب مطهر من السماء، هدى ونور وبشرى، فيه دعوة إلى التوحيد والطهر،

وإلى الحق والخير، وفيه ما شاء الله أن يبلغه البشر من شئون الحياة وأخبار الأمم، وقصص دعاة التوحيد من المرسلين والأنبياء. وفيه كل ما يسعد الناس فى دينهم ودنياهم وآخرتهم من تشريع وعبادات وأخلاق وفضائل وآداب وتوجيه وإرشاد، وفيه ذكر لنهاية الحياة، ولما يكون بعد الحياة من بعث ونشور وحساب وجزاء.

نزل هذا الكتاب الكريم، والوحى الصادق، والدستور العظيم، والوثيقة الخالدة، والنور الشامل، فكان فى أعلى درجات البلاغة، ومنازل الفصاحة، لا يدانيه بيان ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من شعر وخطب ومحاورات ومفاخرات ومنافرات ووصايا ومثل وحكمة وكهانة.. سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم فخروا ساجدين لفصاحته، مذعنين لبلاغته، مقرين بأنه نسيج موحد، وعلم مفرد فى طبقته فى البيان، وبهر الشعراء منهم، فخرست ألسنتهم، وسكتت شاعريتهم، وضاع إلهامهم كما يضيع السراب فى الصحراء.. وعجبت الخطباء فيهم، فخرست مقاولهم، وصمتت ملكاتهم، وفقدوا مواهب البلاغة والقول، وذهبت كل بلاغة فى تياره، وضلت الفطر الأدبية، وفرت أمام أضواء نهاره..

ولكن زعماء الشرك والوثنية أبوا الإذعان للدين، والإيمان برسالة خاتم المرسلين، فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام، ويؤلبون قوى الشرك على دعوة الإسلام، فقالوا فى القرآن هو شعر، وهو سحر، وإن هى إلا أساطير الأولين، ولو نشاء لقلنا مثل هذا، وإن هذا إلا اختلاق، ورموا محمدا ﷺ بالجنون، فتحداهم الله عز وجل ورسوله بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة القاهرة، بالقرآن الكريم، والكتاب العربى المبين، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣]، وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:١٣]، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:٣٤]، وقال: ﴿ قُل لَّئِنِ

اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

* * *

وهكذا بدأ التحدى بالقرآن كله، ثم بعشر سور منه، ثم بسورة من مثله، وقد سجل الله عز وجل عجز البشر كافة، وبيّن أنه لا يستطيع الإنس والجن ـ ولو تظاهروا ـ الوقوف أمام هذا التحدى، ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة التى هى فوق طاقتهم، لأنها بلاغة خالق البشر، والإله القادر الأعظم، ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر، وبرأ رسوله من أن يكون شاعرا وساحرا، ومن الافتراء والجنة، ومن الكذب والخيال، قول الله تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم: ١ - ٤]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ۝ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٨]

وهكذا ردّ الله عز وجل عليهم، وبيّن كذبهم وافتراءهم، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به، وبيّن أنه مُنزل من السماء، وأنه معجزة محمد رسول الله ﷺ، وتحداهم إن كانوا كافرين ومكذبين إلى الإتيان بمثله أو بعشر سور مفتريات من مثله، أو بسورة واحدة، فعجزوا أمام التحدى وباءوا بالخزى والهوان والذلة، وصغرت نفوسهم وأقدارهم، فلم ينطقوا بقول، ولم يجاروا بلاغة القرآن فى آية أو آيات، أو سورة أو سور، واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة، لا فرق بين خطيبهم وبليغهم وشاعرهم، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم.

* * *

وامتدت الأجيال، وتوالت العصور، والقرآن يتردد صداه فى المشارق والمغارب، فلم نر رجلا وقف يتحدى بلاغة القرآن، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان، ولم نر مفكرا يؤلف كتابا، أو شاعرا ينظم قصيدة، أو خطيبا يلقى خطبة، أو كاتبا يحبر رسائل ومقالات، ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة، أو شبه ذلك السحر. . وفى تاريخ العربية فحول وفحول كابن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع، وكالبحترى وأبى تمام والمتنبى والمعرى والشريف الرضى، ولكن أين بلاغتهم من هذه البلاغة ؟، وأين منازلهم من هذه المنزلة؟ وفيها كتب ومؤلفات فى أعلى ذروة البلاغة، كنهج البلاغة، ورسائل الجاحظ، وكليلة ودمنة، ومقامات البديع. . إلخ. ولكن ما مكانها وما قيمتها؟ وما أثرها وما خطرها فى البلاغة الأدبية، والقيمة الفكرية، أمام كتاب الله المعجز، وكلامه الحكيم.

حتى الحديث النبوى الشريف، وهو فى الدرجة العليا من الفصاحة، أين يقع نظمه من نظم القرآن، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسى البيان؟ واقرأ إن شئت بلاغة البلغاء، وفصاحة الفصحاء، ثم انظر بسكون تام، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل فى ذلك، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن القرآن يخالف نظم كلام الآدميين، أراد مسيلمة الكذاب ـ فيما يروى ـ أن يقول كلاما، فخزى وعجز، وبان عليه العى والعجز، وباء بالخسران وسوء المنقلب، وأين يقع قوله: «والليل الدامس، والذئب الهامس، وما قطعت. . أسيد من رطب ولا يابس» وقوله: «والمبديات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، ما سبقكم أهل المدر» وغير ذلك من كلامه، أين يقع من ذلك النظم القرآنى العجيب، المعجز الذى ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وفى الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرعون، وأدباء وكتاب وشعراء وخطباء، ولكل منهم كتب وآثار أدبية وفكرية، ولكن هل هناك من هذه

الآثار ما يعادل فى أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم، بما تضمنه من بلاغة باهرة، وبما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة، وتحديد واضح للمثل الإنسانية العليا، ورسم لأهداف الأفراد والجماعات والشعوب، ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة، والحضارة والعلم والمعرفة؟ وهل من بينها مثله كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدسونه، ويعدونه دستورهم فى الحياة؟ وهل من بينها أثر قام به دين، ونشأت عليه دولة وحضارة استظل العالم برايتها أجيالا طوالا مثل القرآن الكريم والكتاب الحكيم؟ وهل للقرآن - بربك - شبيه من الكتب، وحد لغة، وحفظها وأذاعها فى العالم، ورفع شأنها، وهذب ألفاظها وأساليبها، وأحيا فنونا جديدة من الأدب، وتأثر الناس ببلاغته وعذوبته وسحره، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة كالقرآن الكريم، وما أحدثه من آثار أدبية وبيانية وفكرية فى لغة العرب، فوق آثاره فى حياتهم الاجتماعية والدينية والفكرية والسياسية، وفى حياة العالم، والإنسانية كافة..

ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم يؤمنون إيمانًا صادقا بأن لا سبيل إلى الوقوف فى تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه، هذا الإعجاز البيانى والأدبى والفكرى والروحى، وبأن هذا كله شىء انفرد به القرآن وحده، وأنه كلام الله وكتابه، وأن نبوة محمدا صلوات الله عليه إنما بنيت على هذه المعجزة وذلك الكتاب الحكيم المبين، وستمضى الأجيال، وتتوالى العصور، وهو يضيئ كما يضيئ الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، ويفتن الألباب والعقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته.

ومن شأن بلاغة المفكرين أن تتغير بهجتها وقيمتها وفكريتها بتغير العصور، وتعاقب الأجيال، ولكن القرآن انفرد بثبات قيمه ومثالياته وعقائده وتجدد بلاغته وحسنه وروعته منذ نزوله حتى اليوم..

وخصائص القرآن البيانية، وما اشتمل عليه من روائع الحكم والأمثال، وبليغ المجاز، ودقيق التشبيه، وجيد الاستعارة والكناية، وساحر الطباق والجناس، ومحكم الإيجاز والإطناب المفيد، كل ذلك مضرب المثل بين الأدباء والنقاد.

* * *

أما أغراضه ومقاصده فحسبك أنه قد جال فى كل غرض، فى الاجتماع والسياسة والحكمة والقصص والزهد والأدب والتعليم والإرشاد والوعظ والوعد والوعيد، وفى التشريع والتنظيم والتوجيه، وفى سائر أمور الدنيا والدين.. وأما معانيه فحسبك ما تشتمل عليه من صدق وحق ووضوح وجلال، وهى من خير معين العرب الذى ينهلون منه، لاطمئنان النفوس إليها، وارتياح القلوب لها، ولما تشتمل عليه من الحجة الباهرة والأدلة الساطعة، والأحكام الصائبة، وبحق إنه معجزة البيان، وآية السماء.. وأما ألفاظه فحسبك جزالتها وقوتها فى موضع الجزالة والقوة، وسلاستها وعذوبتها فى موضع العذوبة والسلاسة.. مع البلاغة الرائعة والايحاءات البعيدة، والدلالات الكثيرة، ومع البعد عن الوحشى والغريب النافر والسوقى المبتذل، والبعيد المعقد فوق ما تتحلى به من سحر وجمال، وما تنطوى عليه من أسرار الفصاحة، وخصائص البيان والإعجاز.

* * *

نزل القرآن فى أسلوب لا هو شعر ولا هو سجع ولا هو مزاوجة، ولا هو نثر مرسل ولا خطابة، إنما هو نظم رائع، وألفاظ رفيعة، ومعان عجيبة، ولما سمعه خطباؤهم وفصحاؤهم سجدوا له خاشعين، وما إيمان عمر حين سمع «طه»، وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله: «والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر» حين سمع «فصلت» وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التى يتعبد فيها محمد ليلا ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية، وما عجزهم أمام

التحدى، ما كل ذلك إلا دليل على الإعجاز وعظمة البيان وجلال النسج وجماله، يقول أبو بكر الباقلانى: «إن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعانى اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب فى البلاغة، والتشابه فى البراعة، على هذا الطراز وعلى هذا القدر..».

إن لبلاغة القرآن حديثا طويلا، وهى القضية التى سلم بها أساطين البيان وفحول البلاغة، أرأيت هذا التحدى مع العجز الواضح، والخزى المهين؟

* * *

(٢)

كيف يمكن الوصول إلى إعجاز القرآن الكريم، وأنت حين تنظر إلى جلال كتاب الله من أى جانب تجد إعجازا ما فوقه من إعجاز لقد نزل على محمد صلوات الله عليه كتاب من عند الله، هو أعظم دستور عرف فى شرائع الإنسانية، وأروع كتاب أثر فى تاريخ البلاغة الأدبية. ودعى العرب إلى الإيمان برسالته، وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباح مساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا، بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة. وكلما ازداد تحديا لهم ازدادوا عجزا وخزيا، مع طول باعهم فى فن البيان، ومع أنهم كانوا أكثر ما يكون خطيبًا وشاعرًا وبليغًا. ثم مضت الأجيال، والعلماء والأدباء والبلغاء والنقاد والمؤلفون فى كل عصر يعترفون بإعجازه، ويقرون بقصورهم عن بلوغ منزلته فى البلاغة والفصاحة والبيان. ولا تزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والإكبار، كلما سمعت آية من آياته، أو سورة من سوره. ولا تزال الموازنة بينه وبين ما سواه من الآثار الأدبية والدينية والعقلية مستحيلة ممتنعة، لبعد ما بينه وبين سواه من الآثار كبعد ما بين السماء والأرض، فهل ذلك إلا لأنه كتاب الله الحكيم، ومعجزة محمد الباهرة، والآية الناطقة على صدق رسالته؟ وهل ذلك إلا مظهر لبلاغة القرآن الباهرة، ودليل على إعجازه، وأنه من عند الله. ووجوه إعجاز القرآن الكريم كثيرة، ولكل من العلماء رأى فيها، ويمكن أن نوجزها فيما يلى:

١ ـ بلاغة القرآن النادرة، التى لا يحيط بها وصف، ولا يستطيع أن يكشف خصائصها باحث، ويكفيك أن علوم البلاغة والنقد والإعجاز قد وضعت للكشف عن مظاهر هذه البلاغة وأسرارها، ثم هى للآن، وبعد مضى أكثر من عشرة قرون من الزمان، لا تزال فى أول الغاية، على أن بلاغة القرآن أوسع مدى من البحث عن استعاراته وكناياته وتشبيهاته وأمثاله، وحكمته وإيجازه ومجازه، فهى تشمل كل خصائص الفن الأدبى والبيانى فى القرآن الكريم.

٢ ـ روعة القرآن وجدته، وأخذه بالأفئدة والأسماع والمشاعر والعواطف والنفوس.

٣ ـ عظمة تصويره للحياة الإنسانية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها وللنفس البشرية فى سلمها وحربها، ولهوها وجدها، وأملها وألمها، وكفرها وإيمانها، وللمثل العليا فى الحياة المهذبة الكريمة التى يعمل لها الإنسان وتسير لشاطئها الآمين الإنسانية.

٤ ـ سمو الروح فى القرآن الكريم، فهو ليس كتاب قصص أو تسلية، أو أدب أو حكمة أو فلسفة، أو تارخ أو اجتماع. وإنما هو خلاصة لكل ما فى الحياة من ثقافة وحقائق. ويزيد على ذلك أنه منهج كامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة، وما أجدرنا أن نقول: إنه كتاب الإنسانية كافة.

٥ ـ جلال أثره الأدبى فى لغة العرب وأدبهم. وفى حياتهم، وفى حياة المسلمين والعالم.

٦ ـ خلوده على مر الأيام والأمكنة والعصور، وعجز الناس عن معارضته مع أنه تحدى ولا يزال يتحدى الناس كافة، ومع ما يشتمل عليه تاريخ العالم من أفذاذ المفكرين والأدباء والبلغاء.

٧ ـ بساطة أسلوب القرآن الكريم ووضوحه وجماله وقوته وجزالته وعذوبته.

٨ ـ شرف معانيه، وسمو حكمه، وجلال دعوته، وصدق حجته وعمق منزعه، وعلو تصويره.

٩ ـ والدليل الأخير على الإعجاز هو عظمة أغراضه ومقاصده، ورفعة مراميه ومناحيه، وعبقرية غاياته ورسالته، وتوجيهه البشرية كافة إلى حياة جديدة فيها الأمل والسعادة، والأمن والسلام، والخير المطلق، والإخاء والحق

والعدالة ، والحرية والمساواة بين الناس ، وصدق الله العظيم حين يقول : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١].

إن بلاغة القرآن هى حديث الدنيا، والقضية التى سلم بها أساطين البيان، وفحول البلاغة، أرأيت هذا التحدى مع العجز الواضح، ومع الخزى الأليم؟ وهل سمعت قصة الوليد بن المغيرة، وقد تردد على محمد خفية وخيفة، وسمع منه ثم قال لقومه: «والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى نقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه». ثم أرأيت هذا الأعرابى وقد سمع قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد، وقال : سجدت لفصاحته؟

ولعلك تعلم أن العرب أمة تحب البلاغة، وتعشقها، وتجيدها، ويهزها البيان الجيد، وفيها مصاقع الخطابة، ومقاول الفصاحة، وأعلام الشعر، لا تحسب سحر البيان إلا لها، وبلاغة الكلام إلا وقفًا عليها، وكانت كما يقول الجاحظ: أكثر ما كانت شاعرًا وخطيبًا وقد دعاهم فعجزوا، ثم تحدى به أقصاهم فشدهوا، ثم حاروا فى وصف بيانه وإعجازه، وخروا لحكمته ساجدين.

* * *

العلماء وقضية الإعجاز

شغلت قضية الإعجاز القرآنى العلماء والباحثين أجيالا طوالا، ولا تزال تشغلهم إلى اليوم فلقد كان الإعجاز القرآنى موضع اهتمام العلماء بعد عصر النبوة وموضع دراساتهم، فألف الجاحظ كتابا فى نظم القرآن، سماه «الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه»، كما ذكر فى مقدمة الحيوان، وقد نقده الباقلانى وقال: إنه لم يأت فيه بجديد، ولم يخرج فيه عما قاله المتكلمون قبله، وذكره ياقوت باسم «نظم القرآن»، وفى هذا الكتاب يرى الجاحظ الإعجاز إنما هو فى النظم.

وتلاه أبو عبيد الله محمد بن زيد الواسطى المعتزلى (٣٠٦ هـ) فألف كتابا أسماه «إعجاز القرآن فى نظمه»، وهذا الكتاب مفقود، وقد شرحه عبدالقاهر الجرجانى شرحًا كبيرًا سماه المعتضد، وشرحًا آخر أصغر منه، وهما مفقودان.

أما كتاب أبى عبيدة (٢٠٨ هـ) مجاز القرآن، فليس فى الإعجاز، إنما هو فى الاحتجاج على أسلوب القرآن وتعبيره بأساليب العرب وطرقهم فى التعبير، ومعنى المجاز فيه طريقة الأداء والتعبير عن المعانى، فكأن معنى هذا الاسم طريقة القرآن الكريم فى الأداء، وقد احتج أبو عبيدة فى كتابه للقرآن بأن أسلوبه جار وفق أساليب العرب فى الأداء.

وكتاب «مشكل القرآن» الذى ألفه ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) يتكلم على بعض القراءات ووجوه النحو المشكلة، ويفيض فى شرحها..

ثم ألف الرمانى (٣٨٨ هـ) رسالته «النكت» فى إعجاز القرآن والخطابى رسالته فى الإعجاز أيضا، وهما منشورتان مع الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجانى فى الإعجاز، وقد حقق الثلاث رسائل محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام وطبعتها دار المعارف بمصر بعنوان «ثلاث رسائل».

وفى رأى الرمانى أن الإعجاز سبع جهات:

ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة، والتحدى للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقيامه بكل معجزة.

والبلاغة هذه على عشرة أقسام:

الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

ويرى الخطابى (٣٨٨ هـ) أن إعجاز القرآن إنما هو من ناحية البلاغة، وأنه كان باللفظ والمعنى جميعا، أى بهذا الأسلوب من النظم الذى جمع بين أفصح الألفاظ، فى أحسن نظام للتأليف، متضمنًا أصح المعانى.

وكان كثير من المعتزلة يرون أن الإعجاز سببه الصرفة، وينسب هذا المذهب إلى النظام المعتزلى (٢٢٨ هـ)، وقد جرى الكلام به على ألسنة قوم قبله، ومن أشهرهم عيسى بن صبيح المزدار المعتزلى البغدادى، وكان الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يقول قولا قريبًا من ذلك.

وجاء أبو بكر الباقلانى (٤٠٣ هـ) فألف كتابه «إعجاز القرآن» الذى تكلم فيه عن نبوة الرسول وأن معجزتها القرآن، ودلل على أن القرآن معجز، وأحصى جملة وجوه إعجازه فيما يأتى:

١ ـ ما فيه من الإخبار بالمغيبات.

٢ ـ ما فيه من أخبار الأمم القديمة مع أمية الرسول.

٣ ـ نظم القرآن:

وجوه نظمه عشرة وجوه شرحها الباقلانى وفصلها وأطال الحديث عنها وهى:

الإيجاز - التشبيه - الاستعارة - التلازم - الفواصل - التجانس - التصريف - التضمين - المبالغة - حسن البيان.

أما عبد القاهر الجرجانى فقد ألف كتابه المشهور «دلائل الإعجاز» وفيه يرد على رأى من يذهب إلى أن الإعجاز سببه الصرفة، ورفض أن يكون الإعجاز فى الكلم المفرد أو فى معانى الكلم المفردة أيضا، ورفض كذلك أن يكون سبب الإعجاز هو الجريان والسيولة وعذوبة الألفاظ وعدم ثقلها على اللسان. ورفض كذلك أن يكون الأصل فى الإعجاز هو الاستعارة أو الفواصل، أو الإيجاز أو المجاز، ورد الإعجاز إلى النظم وحده، ولذلك وقف كتابه «دلائل الإعجاز» على شرح نظرية النظم التى هى الأصل فى الإعجاز.

لقد عد كثير من العلماء قبل عبد القاهر البلاغة من بين وجوه إعجاز القرآن ولكن عبد القاهر من بينهم جعلها الوجه الوحيد للإعجاز، وشغل عبد القاهر بإيضاح فكرته فى البلاغة وجمال النظم عن تطبيقها على القرآن تطبيقا كبيرا، ومن ثم كان كتاب «دلائل الإعجاز» مقدمة لفهم الإعجاز. وليس حديثا فى صمم الإعجاز نفسه، إنه شرح لأصول نظرية النظم، من حيث كان الذين قبله يشيرون إلى النظم ودخله فى الإعجاز دون أن يبينوا ما هو النظم ولا المنهج العلمى الذى يدرس على أساسه النظم.

إن عبد القاهر رسم منهجًا علميًا كاملاً لدراسة النظم، وجعل هذا المنهج هو مفتاح فهم قضية البلاغة والإعجاز.

ثم ألف فى الإعجاز بعد الباقلانى وعبد القاهر:

١ - فخر الدين الرازى م ٦٠٦ هـ.

٢ - ابن أبى الإصبع م٦٥٤ هـ.

٣ - الزملكانى م ٧٢٧ هـ.

٤ - إعجاز القرآن للرافعى المتوفى عام ١٩٣٦ م ٨.

ولقد كان الباعث للكثير منهم على ذلك هو الرد على بعض المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن إعجاز القرآن سببه الصرفة. ومذهب الصرفة ينسب إلى النظام المعتزلى، وقد جرى الكلام به على ألسنة قوم قبله من أشهرهم عيسى ابن صبيح المزدار المعتزلى البغدادى، وكان الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين يقول قولاً قريبًا من ذلك، وممن آمن بهذا المذهب بعد الباقلانى ابن سنان الخطابى ٤٦٦ هـ صاحب كتاب «سر الفصاحة».

وقد بدأ الباقلانى كتابه «إعجاز القرآن» بمقدمة تهدى إلى الكتاب وبحوثه، ثم تكلم على نبوة الرسول وأن معجزتها القرآن، ودلل على أن القرآن معجزة، وأحصى جملة وجوه إعجاز القرآن، وهى:

١ ـ الإخبار عن المغيبات.

٢ ـ ما فيه من أخبار الأمم القديمة مع أُمية الرسول.

٣ ـ نظم القرآن.

وقد شرح الباقلانى وجوه جمال نظم القرآن فى عشرة وجوه:

ثم تحدث عن نفى الشعر عن القرآن.. وعن نفى السجع عنه أيضا...

وذكر كيفية الوقوف على إعجاز القرآن، والعجز عن معارضة القرآن فى كل عصر والتحدى، وقدر المعجز من القرآن، وما يتعلق به الإعجاز.

ووصف وجوه البلاغة وأنها عشرة أقسام:

الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلازم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

ويقول: ومن الناس من يريد أخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة التى ذكرنا أنها تسمى البديع، ومن الناس من زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه العشرة التى ذكرناها هنا.

واعلم أن الذى بيناه قبل هذا، وذهبنا إليه، هو سديد، وهو أن هذه

الأمور تنقسم: فمنها ما يمكن الوقوع عليه، والتحمل له، ويدرك بالتعليم، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة الإعجاز به، وإما ما لا سبيل إليه بالتعليم والتعلم من البلاغات فذلك هو الذى يدل على إعجازه.

ويتكلم بعد ذلك الباقلانى فى حقيقة المعجز، وفى أمور تتصل بالإعجاز يذكر لمحة فى وصف القرآن. . . إلى نهاية الكتاب.

ويقول المرحوم الرافعى فى كتابه إعجاز القرآن:

إن كتاب الباقلانى وإن كان فيه الجيد الكثير، وكان الرجل قد هذبه وصفاه وتصنع له، إلا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره، ولم يتحاش وجها من التأليف لم يرضه من سواه، وخرج كتابه كما قال هو فى كتاب الجاحظ لم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى، فإن مرجع الإعجاز فيه إلى الكلام وإلى شىء من المعارضة البيانية بين جنس وجنس من القول ونوع وآخر من فنونه، وقد حشر إليه أمثلة من كل قيل من النظم والنثر ذهبت بأكثره وعمرت جملته، وعدها فى محاسنه وهى من عيوبه، وكان الباقلانى واسع الحيلة فى العبارة ومبسوط اللسان إلى مدى بعيد، يذهب فى ذلك مذهب الجاحظ وابن العميد، على بصر وتمكن وحسن تصرف، فجاء كتابه وكأنه فى غير ما وضع له فيه من الإغراق فى الحشد، والمبالغة فى الاستعانة، والاستراحة إلى النقل، لذا كان أكبر غرضه فى هذا الكتاب أن ينبه على الطريقة، ويدل على الوجه، ويهدى إلى الحجة، «وهذه ثلاثة لو بسطت لها كل علوم البلاغة وفنون الأدب لوسعتها» وهى مع ذلك حشو.

على أن كتابه قد استبد بهذا الفرع من التصنيف فى الإعجاز، واحتمل المؤونة فيه بجملتها من الكلام والعربية والنقد، وفى كثير مما قصد إليه من أمهات المسائل والأصول التى أوقع الكلام عليها، حتى عدوه الكتاب وحده، لا يترك العلماء معه كتابا آخر فى خطره، ومنزلته وبعد غوره وإحكام ترتيبه وقوة حجته وبسط عبارته وتوثيق سرده.

ويقول زكى مبارك فى كتابه «النثر الفنى فى القرن الرابع» عن الباقلانى أنه ولد بالبصرة، وسكن بغداد وتوفى بها سنة ٤٠٣ هـ، وهو من كبار أهل السنة ومؤلف كتاب «إعجاز القرآن». والكتاب فى نظرنا صورة للحياة الأدبية فى القرن الرابع الهجرى.

والباقلانى يقول عنه الجاحظ البغدادى فى تاريخ بغداد:

هو محمد بن الطيب بن محمد «أبو بكر القاضى» المعروف بابن الباقلانى المتكلم على مذهب الأشعرى، من أهل البصرة، سكن بغداد وسمع بها الحديث، وكان ثقة.

فأما الكلام، فكان أعرف الناس به، وأحسنهم خاطرا، وأجودهم لسانا، وأوضحهم بيانا، وأصحهم عبارة.

وله التصانيف الكثيرة المنتشرة فى الرد على المخالفين: من الرافضة والمعتزلة والجهمية والخوارج.. وغيرهم..

وبعث عضد الدولة القاضى أبا بكر الباقلانى فى رسالة إلى ملك الروم، فلما ورد مدينته عرف الملك خبره، وبين له محله من العلم وموضعه، ففكر الملك فى أمره، وعلم أنه لا يسجد بين يديه إذا دخل عليه، كما جرى رسم الرعية أن تقبل الأرض بين يدى الملوك ثم نتجت له الفكرة أن يضع سريره الذى يجلس عليه وراء باب لطيف لا يتمكن أحدا أن يدخل منه إلا راكعا، ليدخل القاضى منه على تلك الحال، فسار القاضى حتى وصل إلى المكان، فلما رأه تفكر فيه ثم فطن بالقصة، فأدار ظهره، وحنى رأسه راكعا، ودخل من الباب وهو يمشى إلى خلفه، قد استقبل الملك بدبره حتى صار بين يديه ثم رفع رأسه ونصب ظهره، وأدار وجهه حينئذ إلى الملك، فعجب من فطنته ووقعت له الهيبة فى نفسه.

* * *

وللسكرى يمدح القاضى أبا بكر:

اليعربـــى فصاحـــة وبلاغـــة

والأشعـرى إذا اعـتزى للمذهــب

وصلتــه همتـه بأبعـــد غايــة

أعيـا المزيــد لها سـبيل المطـلب

ما زال ينصر ديـن أحمـد صادعـا

بالحـق، يهدى للطـريق الأصوب

شرفــا أبا بكـر وقــدرا صاعــدا

يختب فى شـرق العـلى والمغرب

حييـت بـك الآمـال بعـد مماتهـــا

والغيث خصـب للمكان المجدب

فأسلم سلمت من الزمان وصرفه

فلأنت أسـرع من ربيـع المحصب

ومات القاضى أبو بكر محمد بن الطيب فى يوم السبت لسبع بقين من ذى القعدة سنة ثلاث وأربعمائة.

وقال عنه ابن خلكان:

القاضى أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، المعروف بالباقلانى البصرى المتكلم المشهور.

كان على مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى، ومؤيدا اعتقاده، وناصرا طريقته، وسكن بغداد، وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة فى علم الكلام وغيره وكان فى علمه أوحد زمانه، وانتهت إليه الرياسة فى مذهبه، وكان

موصوفا بحب الاستنباط، وسرعة الجواب، وسمع الحديث، وكان كثير التطويل فى المناظرة مشهورا بذلك عند الجماعة، وجرى يوما بينه وبين «أبى سعيد الهارونى» مناظرة، وأكثر القاضى أبو بكر المذكور فيها الكلام، ووسع العبارة، وزاد فى الإسهاب، ثم التفت إلى الحاضرين وقال: اشهدوا على أنه إن أعاد ما قلت لا غير لم أطالبه بالجواب، فقال الهارونى: اشهدوا على أنه إن أعاد كلام نفسه سلمت له ما قال.

وتوفى القاضى أبو بكر آخر يوم السبت، ودفن يوم الأحد، لسبع بقين من ذى القعدة سنة ٤٠٣ هـ ببغداد.

ورثاه بعض شعراء عصره بقوله:

انظر إلى جبـل تمشى الرجـال بـه
وانظر إلى القبر ما يحوى من الصلف

وانظر إلى صارم الإسلام مغتمدا
وانظر إلى درة الإسلام فـى الصــدف

* * *

سبحان الله العظيم، مالك الملك، ذى الجلال والإكرام ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

ما من شىء أخبر به القرآن الكريم، إلا وكان الحق صداه، وإلا وأيَّد التاريخ مضمونه وفحواه.

وما من شىء نبأ به القرآن المجيد إلا وسيقع كما أخبر به كتاب الله العلى الحميد.. هزم الفرسُ الروم واستولوا على البلاد التى كان الروم يحكمونها قبيل الهجرة، ونزل القرآن الكريم يقول: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥)﴾ [الروم: ٢ - ٥] وما هى إلا سنوات وإذا بالروم المستضعفين يهبون فجأة، ويستردون كل الأرض التى أخذت منهم ويهزمون الفرس هزيمة منكرة، وكان ذلك عام بدر [٦٢٤ميلادية/ ٢ للهجرة].

ولنقف هنا بين يدى الآية الكريمة، قال الله تعالى فى كتابه الحكيم:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩].

الآيات: جمع آية، ومعناها هنا: المعجزة الدالة على قدرة الله وعظمته.. وتطلق الآية فى استعمالات أخرى ويراد بها العبرة والعظة، أو العلامة والدلالة، أو الفِقْرة من فِقَر سور القرآن الكريم: ولكل هذه المعانى شواهد من كتاب الله عز وجل ليس هنا مجال ذكرها.

وخَلْقُ السماوات والأرضَ معجزة المعجزات، وهو أيضا دلالة على قدرة الله وعظمته وجلاله.

وخَلْقُ الكائنات والموجودات التى بثَّها الله فى السماوات والأرض، ونشرها وفرَّقها فيهما أيضا معجزة من معجزات الخلاق العظيم، والإله القادر المهيمن الحكيم.

والدابة: اسم لكل ما يدبُّ على وجه الأرض والسماء من ملائكة وجنٍّ وأناسيٍّ، وحيوانات.

والخالق الأعظم، الذى صنع كل هذه المعجزات هو وحده على جَمْع كل ذلك قدير مقتدر. وعلماء التفسير يقولون: إن هذا الجمع سيحدث يوم القيامة. والتعبير بميم الجمع فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ ﴾ [الشورى:٢٩] دلالة على أنه يريد ما فيه روح من أناسيّ، وجنّ وملائكة، وأنا أرجح أن كون المراد هنا من أناسيّ والكائنات الموجودة فى الأرض والسماء دون الملائكة بدلالة ميم الجمع من ناحية، وبدلالة المعنى من ناحية ثانية، إذ أن هذا الجمع لابدَّ أن يكون لكائنات تتآلف وتتفق فى الوجود الإنسانى.

وأرجح كذلك أن يكون هذا الجمع - أى اللقاء - فى الدنيا، لأنه هو المعجزة التى لا يتصورها العقل البشرى، أما اللقاء بين الكائنات ـ كائنات الأرض والسماء ـ فى الآخرة فهو بديهى مادام النشور والبعث والقيامة مما يجب أن يؤمن به المؤمن المصدِّق بكتاب الله عز وجل، أما اللقاء فى الدنيا فهو الذى لم يوجبه علينا، ولم يفرضه علينا، الكتاب الحكيم، وهو موضع الغرابة والعجب، لأن ما فى يوم القيامة معجزات فى معجزات، يجب علينا الإيمان بها، ولكن اللقاء فى الدنيا وإن كان معجزة أيضا، إلا أنه لا يدخل فى أصول العقيدة، فهو إذن من دلائل القدرة الإلهية، وهو إذن إرادة الله، معجزة من معجزات السماء، عُنى القرآن الحكيم هنا بتسجيلها والنصِّ عليها وعلى أنها آية من آيات الله. ولو كان اللقاء فى الآخرة هو المراد هنا لما جاء قوله تعالى ﴿ إِذَا يَشَاءُ﴾ لأن من البدهى أن الله عز وجل قد شاء هذا الجمع

فى الآخرة على سبيل القطع، لا على سبيل الفرض الموجودة هنا فى الآية الكريمة والفرضُ هنا مؤكد الوقوع بدلالة ﴿إذَا﴾.

فالمعنى المراد أن الله عز وجل قادر على جمع كائنات الأرض والسماء، وعلى إيجاد اللقاء بينهما، عندما يشاء، ووقتما يريد.

وهذه هى المعجزة التى يتنبأ بها القرآن الكريم، فالآية تدل على أن فى الكون والكواكب الأخرى حياة، وأن فيها كائنات مثل الإنسان، وأنه سيحدث لقاء بين إنسان الأرض وكائنات هذه الكواكب عندما يشاء الله تعالى.

وأظن أنه قد حان وقت اللقاء؛ فالعلماء يرسلون مراكب الفضاء بين حين وآخر، لاكتشاف الكواكب الأخرى، ومعرفة مدى ما فيها من حياة، ونوع هذه الحياة، وهم يخططون الآن للنزول على سطح المريخ لاكتشاف الحياة فيه وجاء فى صحيفة الأهرام المصرية [١٦ مايو ١٩٩٣] تحت عنوان «البحث عن حياة أخرى فى الكون»: من المتوقع وجود العديد من الحضارات، وبدرجات متفاوتة فى أرجاء الكون، وهذه الحضارات - إن وجدت وبناء على درجة تقدمها التكنولوجى - قد تحاول الارتباط والاتصال بعضها ببعض، ومحاولاتنا للاتصال بهذه الحضارات الخارجية سوف يكون له تأثير هائل على نظرياتنا العلمية الحالية، وعن نمو وتطور هذه الحضارات، وهذا بالطبع يحتوى وبالدرجة الأساسية، حضاراتنا الإنسانية على وجه الأرض وتسترسل الصحيفة فى الحديث عن طرق هذا الاتصال، إلى أن تقول: إن اهتمام الإنسان بمحاولة الكشف عن هذه الحضارات والاتصال بها بلغ مدى كبيرا من الاهتمام إلى درجة أن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تنفق عشر ملايين من الدولارات كل عام ولمدة الأعوام الخمسة القادمة، على أبحاث محاولة اكتشاف حضارات أخرى كونية والاتصال بها، وليس هنا من الناحية النظرية بالضرورة ما يمنع من وجود حضارات أخرى تقبع فى أحد أركان المعمورة.

وبعد فإنى أقول: أليس فى ذلك كله دلالة على أن العقل الإنسانى يخطط

من قريب ومن بعيد للتعجيل بهذا اللقاء، بين كائنات الأرض وكائنات الكواكب الأخرى التى يرجح العلماء وجودها على سطح المريخ وغيره من كواكب.

إن القرآن الكريم منذ نحو خمسة عشر قرنا من الزمان قد أشار باللقاء بين إنسان الأرض وكائنات الكواكب الأخرى - السماء - وجعل ذلك مرهونا بوقت مردُّه مشيئة الله عز وجل وإرادته.

وفى هذا دلائل عظمة كتاب الله الكريم، القرآن الحكيم، وأنه من عند الله حقا، وأن كل ما جاء به الكتاب المنزل من السماء إنما هو على لسان المولى الأعظم، والخالق الأكبر والمدبر الأعلى لهذا الكون الكبير بنجومه وكواكبه وأفلاكه وسيَّاراته ومجراته العظيمة التى يحار العقل البشرى فى تصورها.

لقد قال الله عز وجل فى كتابه الحكيم: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩]، ولم نعرف تفسير هذه الآية وأن معناها اختراق طبقات الفضاء والصعود إلى كواكب أخرى كالقمر إلا بعد أن قال العلم كلمته، وصعد الإنسان بالعلم إلى القمر؛ وقال عز وجل فى كتابه الحكيم : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، وكان معنى ذلك أن الإنسان إذا قدر أن يخترق طبقات الفضاء. فليفعل، وأنه لن يستطيع ذلك إلا بسلطان عظيم من العلم الذى علمه الله للإنسان. وتحقق ذلك باختراع العقل البشرى للصواريخ والمركبات الفضائية المذهلة.

وجاءت هذه النبوءة القرآنية الخالدة فى القرآن الكريم، نبوءة اللقاء بين إنسان الأرض وكائنات الكواكب الأخرى، التى لم تتحقق بعد وستتحقق بإذن الله، لأن الله عز وجل قد شاءها، والتعبير فى آية الشورى الكريمة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]، بلفظة إذا التى تستعمل فيما هو قرب من الوقوع وسيقع، للدلالة على أن ذلك سيحدث بإذن الله ومشيئته، كما تقول لصديق لك «أزورك إذا تشاء»، للدلالة على أن المشيئة ممكنة، وأن

الزيارة قريبة من الوقوع، وفى حدود الإمكان الذى لا استحالة فيه ولا شبه استحالة ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝﴾ [الانفطار: ٦، ٧].

ويا أيتها الإنسانية، اصغى بسمعك لتسمعى هذه النبوءة، التى نزل بها الذكر الحكيم، منذ نحو خمسة عشر قرنا من الزمان، وتسمعى لهذه الآية الكريمة التى جاء فى ختامها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]. ست كلمات تحمل لنا هذه النبوءة الجليلة، نبوءة اللقاء بين إنسان الأرض وكائنات الكواكب الأخرى، التى لا يصدقها عقل إنسان قبل، بل ولا يكاد يصدقها عقله اليوم، والتى لابد أن يعيها العقل الإنسانى عندما تقع وتحدث، فى أعوام قريبة قادمة. وعقل إنسان عصر الرسالة المحمدية معذور حقا إذا لم يفهم معنى هذه الآية الكريمة، بل وكذلك عقل إنسان العصور التى تلت عصر الرسالة، إذ كيف كان فى إمكانه أن يعرف ذلك، وأن يعيه ويفهمه ويعقله. وإنسان اليوم عاد فى عصر الفضاء إلى التأمل، وإلى الإيمان بأن هذا اللقاء أمر ممكن الحدوث، بل وقريب الوقوع أيضا.

عصر الفضاء جعل تصوُّر ذلك كله أمرا سهلا قريبا من الفهم، بعد أن كان أمرا أسطوريا محالا غريب التصور، مستحيل الإمكان فليسكن روع الإنسان والإنسانية، وليخفض صوت الماديين والعلمانيين والملحدين.

لقد قال العلم كلمته اليوم، بعد أن قالها القرآن الكريم منذ نحو خمسة عشر قرنا من الزمان.

فلتنتظر البشرية والعالم اليوم القريب، الذى يعلن فيه العلم كلمته، ويقول لنا: هذا هو كائن كواكب السماء، يقف اليوم بجوار إنسان الأرض، ليؤكد لقاؤهما أن الله حق، وأنه قادر، وأن الله عز وجل على جمعهم إذا يشاء قدير، وصدق الله العظيم.

* * *

التفسير العلمى للقرآن الكريم
بين النظريات والتطبيق

(١)

القرآن الكريم معجزة رسولنا العظيم، محمد بن عبد الله ﷺ، على طول العصور والأجيال والأحقاب.. هو المعجزة الشاهدة على صدقه صلوات الله عليه فى كل ما بلغ به عن رب العزة الأقدس..

ولكن لماذا كان معجزة؟ هل هو معجزة لأسلوبه، أو للجانب العلمى الذى تحدث عنه كتاب الله، أو لغير ذلك من الجوانب؟

وللعلماء مذاهب فى التفسير العلمى فى القرآن الكريم، بسطها الذين كتبوا فى إعجاز القرآن الكريم، مثل الباقلانى (٤٠٣ هـ) فى القديم ومصطفى صادق الرافعى (١٩٣٧م) فى الحديث.. كما كتب فيها عبد القاهر الجرجانى كتابه الخالد «دلائل الإعجاز»، وكذلك علماء البلاغة والنقد فى تراثنا العربى.

ولهم كذلك مذاهب فى التفسير العلمى، فالشاطبى يرفض التفسير العلمى للقرآن الكريم، وكذلك يرفض الدكتور محمد كامل حسين مبدأ وجود العلوم فى القرآن الكريم، وهو رأى الدكتور أركون والدكتور عاطف أحمد، ويذهب لفيف من العلماء إلى ذلك الرأى مع تأكيدهم على عدم وجود تضارب بين حقائق العلم وحقائق القرآن الكريم، ومن بين هؤلاء الشيخ شلتوت والشرباصى والذهبى وبنت الشاطئ.. وطائفة أخرى تقر التفسير العلمى للقرآن الكريم وتذهب إليه، ومن بينهم: الغزالى والسيوطى والشيخ طنطاوى جوهرى.

(٢)

ومن بين أدلة الرافضين للتفسير العلمى للقرآن الكريم أن العلم متجدد دائما ويحمل صفة التغير والتحول والتبدل يوما بعد يوم، وأن القرآن رسالة عامة لجميع البشر لا للعلماء وحدهم، وأن السلف لم يذهب إلى التفسير العلمى لكتاب الله عز وجل، ولا شك أن هذه الآراء قد عورضت بآراء أخرى للمؤيدين للتفسير العلمى للمعجزة القرآنية الباهرة.

(٣)

وحول هذا الموضوع كتبت باحثة تونسية هى الدكتورة هند شلبى كتابا بعنوان هذا الموضوع، بسطت فيه الموضوع بسطًا واسعًا، وشرحت الآراء والمذاهب شرحا تفصيليا، وأفاضت فى ذكر المصادر والمراجع إفاضة بالغة.. فوفقت أجل توفيق، وبلغت الغاية فى الاستقصاء والإحصاء.. والباحثة أستاذة مساعدة بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بالجامعة الفرنسية.

وتقول الباحثة فى مقدمة كتابها: إن الذى دعانى إلى الكتابة عن التفسير العلمى للقرآن الكريم عدة أمور منها:

١ - سعة التأليف فيه.

٢ - تعدد محير لمواقف العلماء والباحثين حول قبول التفسير العلمى للقرآن الكريم أو رفضه.

٣ - عدم وجود دراسات علمية مركزة حول هذا الموضوع.

٤ - كثرة الآراء العفوية التى كتبت حول ذلك.

وتؤكد المؤلفة حرصها فى بحثها على أمرين:

الأول: محاولة الإلمام بمواقف العلماء من التفسير العلمى وبحججهم.

والثانى: الاحتكام فى الموضوع إلى القرآن الكريم نفسه، وإلى علوم القرآن الكريم وعلم اللغة العربية.

والمحاولة الأولى هى القسم النظرى فى الكتاب، والمحاولة الثانية هى القسم التطبيقى فيه.

(٤)

وفى القسم التطبيقى تعرض الباحثة لمسائل علمية عديدة، من بينها:

١ ـ كروية الأرض فى القرآن الكريم.

٢ ـ دور الجبال فى تثبيت الأرض.

٣ ـ البنان والبصمات.

وتفصل الباحثة الحديث عن هذه المسائل تفصيلاً كبيرًا مهتدية إلى الإعجاز العلمى للقرآن الكريم من التحليل العلمى واللغوى لأسلوب القرآن الكريم.

وفى ختام البحث تقول المؤلفة: ان التيار العلمى الحديث الذى أخذت الحضارة الإسلامية فى تمثله لم يتخلف عن القاعدة، فقد اهتم به الباحثون وحاولوا استنباط قواعده ونظرياته من القرآن، وقد تساءلنا فى هذه الدراسة عن نوع العلاقة الممكنة بين العلم والقرآن.

وقدمنا الأجوبة المتنوعة على ألسنة أصحاب المذاهب المختلفة..

ونتيجة لهذه الدراسة يمكن أن نعرف أن الذى يتوصل إلى العلم عن طريق البحث والدراسة، كشف عنه من قبل القرآن الكريم عن طريق الوحى الإلهى..

وبعد فهذا البحث جدير بالقراءة والتأمل لأهميته وعمقه وجديته.

* * *

القسم الثانى

القرآن الكريم وأزمة الإنسان المعاصر

القرآن الكريم وأزمة الإنسان المعاصر

(١)

قال الله تعالى فى كتابه الحكيم فى مطلع سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾[1] [الرحمن: ١ -٤].

وصدق الله العظيم، صدق الرحمن الرحيم.

علم رسوله والناس والإنسانية كلها القرآن الكريم، علمهم دينه وشريعته وألزمهم بناموس السماء، وألزمهم كلمة الإيمان، كلمة التقوى والدين والوحى، والأمانة والمسئولية، وكانوا أحق بها وأهلها.

وليس هناك نواميس تحكم الكون والحياة والوجود والإنسان إلا الإيمان، إلا الدين، إلا منهج السماء، إلا القرآن الكريم[1] «إن الإنسانية لم تعرف تشريعا عالميا غير الإسلام قط، لم تعرفه فى الماضى، ولم تعرفه حتى اليوم»[2].

إن القرآن هو الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب:

إن القرآن ليس كتابا أدبيا (فحسب) وإنما هو حياة، والإسلام نفسه طريقة حياة وطريقة فى التفكير (٣٤ الإسلام بين الشرق والغرب).

وإذا أرادت الإنسانية الهداية إلى رشدها آمنت، وجعلت القرآن نورها التى تمشى فى أضوائه، وإذا ضلت وأرادت لنفسها الشقاء خرجت عن منهج هذا الكتاب العظيم.

يقول الله عز وجل لنبيه الكريم: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ

---

(١) يقول د. موريس الفرنسى: القرآن أفضل كتاب اخرجته العناية الأزلية لبنى البشر.

(٢) ١٣ الإسلام والإنسان المعاصر - فتحى رضوان - سلسلة اقرأ - عدد ٤٠٦.

مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ، ١٧٦].

إن رسالة القرآن هى رسالة الإيمان والإسلام والإحسان[١].

يقول جوته: القرآن سيحافظ على تأثيره إلى الأبد لأن تعاليمه مطابقة للحاجات الفكرية لقوم معتزين بتقاليدهم.

إن أزمات الإنسانية والإنسان والحضارة اليوم هى أزمة الانسلاخ من نواميس السماء ومن منهج الوحى والدين والقرآن الكريم.

وهى أزمة تمثل تيارات عاصفة تكاد تهوى بالعالم إلى مكان سحيق.

وأزمة الإنسان المعاصر فى الحاضر تتمثل فى عدة جوانب، دعم بعضها البعض الآخر وتسير بالمجتمعات والشعوب إلى حيث الانحلال والانهيار والدمار.

(٢)

وأولى أزمات الإنسان المعاصر اليوم الأزمة الروحية، أزمة الإنسان مع الوجود والحياة والكون، بل مع نفسه، بل مع رب السماء والأرض والناس أجمعين، مع الله جل جلاله.

والقرآن الكريم قد حل هذه الأزمة وفك تلك المغاليق، حلا كاملا.

فالكون كله هو مشيئة الخالق العظيم، وتدبير الإله المبدع، مدبر كل شىء فى هذا الوجود، وهو المعبود بحق، ولا آله سواه، الإيمان شريعته، والتوحيد دعوته، وتجديد صلة الإنسان بربه هو المنهج القرآنى الجليل المؤثر كل التأثير فى حياة الأفراد، والجماعات، والشعوب.

(١) الإسلام دعوة عالمية للعقاد (كتاب الهلال عدد ٢٣٧ ـ نوفمبر ١٩٧٠) ـ

ولكن إنسان العصر الحديث قد امتلكه الغرور، وابتلى بزعم سلطان العقل، وبأن هذا السلطان يفرض مشيئته على كل شىء فى الحياة، فليس غير سلطانه شىء فى هذا الوجود، ومن ثم نشأت دعوات العلمانية والمادية الجدلية والإلحاد والإباحية المطلقة التى لا تعترف بالنواميس والثوابت على الإطلاق.

القرآن الكريم والإيمان به هو الحل الوحيد لهذه الأزمة الروحية التى يجابهها الإنسان، ويجابه بسببها آلاف المشكلات والأزمات والعواصف.

أن نؤمن بإله واحد معبود ودين سماوى خاتم، إيمانا كاملا، وبديانات سماوية أخرى نزلت على رسل كرام من قبل، وتلقى تقديسنا، مع معرفتنا بما دخلها من تحريفات العصور.. أن نؤمن بذلك كله، ونتجه إلى السماء، وإلى الله وإلى مدبر هذا الكون العظيم... هذا هو الحل الأوحد الذى جاء به القرآن الكريم. من أجل القضاء على هذه الأزمة الروحية، وعلى آثارها المدمرة على الإنسان، من أجل أن يعيش على الأرض مطمئنا سعيدا، ينعم بخلافة الله وبرضائه، وبسعادة الدنيا والآخرة من قبل ومن بعد، فلا توزع نفسه شياطين الإنس والجن، ولا بلابل الوساوس والأفكار والتيارات المنحرفة، التى لا تأتى على شىء إلا جعلته كالرميم، فذلك جميعه هو الطريق المستقيم، والصراط السوى.

فالإنسان فى القرآن الكريم ـ كما يقول العقاد ـ «هو الخليفة المسئول بين جميع خلق الله، يدين بعقله فيما رأى وسمع ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب، فلا تدركه الأبصار والأسماع والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وآله واحد»[1] بل ولها دين ترجع إليه، وكتاب تؤمن به، وتجعله بين يديها نورا تمشى به فى ظلمات الحياة.

---

(١) الإنسان فى القرآن الكريم للعقاد ـ طبعة هيئة الكتاب العامة ـ مصر ـ مكتبة الأسرة.

لا علاج إذن لأزمة الإنسان الروحية إلا أن يكون مؤمنا بالدين، والدين ينطوى تحت منهاجه الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وهذا الإيمان هو المنبع للضمير الإنسانى، ولكل القيم الأخلاقية السامية، مما يفرض على الإنسان تمثل الله فى كل خطوة، وكل قول وكل عمل دائما أبدا.

(٣)

وثانى أزمات الإنسان المعاصرة: أزمة الحرية، فقد صار الإنسان المؤمن بحريته يزعم أن هذه الحرية تأبى عليه أن يقيد نفسه بمذهب أو دين أو أعراف، بل صار يزعم أن له أن يفعل ما يشاء، وإن أضر بالآخرين أو بنواميس المجتمع الذى يعيش فيه.

والقرآن الكريم، يجعل للحرية حدودا، ولأوامر الدين حتمية الإيمان بها واتباعها والسير على منهجها، لكى يضمن الإنسان سعادته فى الدنيا والآخرة، فلا حرية بلا حدود وبلا قيود، ولا إطلاق للحرية إذا ما أضرت بحريات الآخرين، فالإنسان ليس حرا يقتل أو يسرق أو يرتكب الكبائر والصغائر كما يشاء، ولكن حريته تمنعه أن يغتال حريات الآخرين، ولا يمكن أن ترفض نواميس الشرائع بحجة أنها قيد على الحرية إن ذلك الزعم الباطل عبث لا معنى له، والزاعمون لهذا المنطق الفاسد هم المفسدون فى الأرض، فالقرآن الكريم، بل وجميع نواميس الحياة تفرض القيود على حريات الفرد لصالح المجتمع، حتى لا تصبح الحياة فوضى لا نهاية لشرورها.

وإذا كانوا فى الحديث عن الفن يقول النقاد: لا فن بلا قيود، أفما يصح أن تقول ذلك أيضا هنا، لا حرية بلا قيود. إن الناس لو فهموا ذلك لما سمعنا أن ابنا أو بنتا يواجهان أباهما أو أمهما أو ولى أمرهما بأنهما أحرار يفعلون ما يشاءون.

إن هذه الحرية التى أعطاها القرآن الكريم للإنسان لا يصح أن تكون مسوغا لاغتيال حريات الآخرين، ولا مبررا لتدمير الحياة والمجتمعات والشعوب فالشريعة حقوق وواجبات، ومن المحتم العمل بمنهجها كاملا غير منقوص والله تعالى يقول فى محكم كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

لقد حل القرآن الكريم أزمة الإنسان المعاصر حلاً كاملاً، الأزمة الروحية والدينية والخلقية والاجتماعية جميعا بما يضمن سعادته، وسعادة الحياة والناس من حوله.

ولقد شرع القرآن والإسلام الحرية، ولم يشرعا الرق، وشرعا وسائل الحرية، وجعلا لها ناموسًا واجب الاتباع والعمل.

بل وجعل القرآن الكريم الحرية حقا من حقوقهم الإنسانية، التى يجب ألا يحرمه منها أحد.

إن أزمة الحرية لا تعيش، بل ولا توجد، مع وجود تعاليم الإسلام، الذى يفرض العدل فرضًا، ويمنع الحاكم والقوى والغنى أن يحولوا بين الإنسان وحريته، أو أن يستبدوا بالآخرين، والدين يفرض القانون الإسلامى فرضا على الناس كافة.

ومما يتصل بأزمة الحرية مشكلة الجنس التى قضى عليها القرآن الكريم قضاء كاملا بما سن من تشريعات لنظام تكوين الأسرة وحقوق الزوجة والأبناء والأقارب، والزواج والطلاق والمواريث والحضانة والنفقة.

ولا يوجد فى الأديان دين يولى كل ذلك القسط الأكبر من رعايته سوى الإسلام وكتابه المنزل، القرآن الحكيم.

(٤)

وثالث هذه الأزمات التى يواجهها الإنسان المعاصر: الأزمة المادية وهى أكثر الأزمات التى يجابهها القرآن الكريم أو التى جابهها فى الماضى، ويجابهها فى الحاضر، ويظل يجابهها فى المستقبل، وليس هناك حل غير حل القرآن الكريم لهذه الأزمة العاتية.

لقد حارب القرآن الفقر حربا عادلة دون هوادة وفرض نظام الزكاة والصدقة والإحسان ونظام الوقف والوصية، والشركات والمزارعة، والمضاربة، وحرم الربا والاحتكار والغش وأكل أموال الناس بالباطل وحرم الفساد فى الأرض، ودعا إلى التكافل الاجتماعى، والأخوة الإنسانية، وجعل للجار حقوقا يجب أن تؤدى، وفرض صلة الرحم، ورعاية المرأة والعامل والخادم والمسكين واليتيم والمريض والعاجز عن العمل والأسير والضيف والغريب، بل والمسافر المنقطع عن ماله.

ولقد روى لنا التاريخ أن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يجد من يأخذ الزكاة من مستحقيها، وأن الناس عاشوا جميعا فى رضى وقناعة واكتفاء من دون أن يسيطر عليهم شبح الحاجة والعوز والفقر المخيف، وتبارك الله رب العالمين فيما يقول فى كتابه الحكيم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

لقد حل القرآن الكريم جميع المشكلات الاقتصادية التى يواجهها الإنسان، وها هو ذا مفكر فرنسى كبير مثل جاك استروى يقول فى كتابه «الإسلام أمام التطور الاقتصادى» الذى نشر فى باريس ١٩٦١ فى الصفحة ١١٢ ما نصه: أن الإسلام يتمتع بإمكانيات هائلة، وإذا ما وجد الطريق الصحيح مفتوحة أمامه فإن كثيرا من الصعوبات الاقتصادية سوف يحلها هو وحده، وهو أقدر على ذلك من غيره من معاهد مذاهب الروسية والغربية على السواء.

ولقد حرم الإسلام الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، كما حرم الاحتكار والاستغلال والنهب لأموال الناس.

كما حرم السرقة والعدوان على المال بأية وسيلة غير مشروعة، وجعل دفاع الإنسان عن ماله كدفاعه عن دينه وعرضه، دفاعا مشروعا.

(٥)

ورابع هذه الأزمات التى يجابهها الإنسان المعاصر هى الأزمة السياسية، فالشعوب والدول يحكم كلا منها نظم سياسية متضاربة متصارعة ذات اليمين وذات الشمال ويتحكم فيها حكومات مختلفة المذاهب والأيديولوجيا والتيارات، وجاء القرآن الكريم ففرض على المسلمين جميعا منهجا سياسيا موحدا وكاملا أساسه الشورى والعدل والتزام الأمانة وإعطاء ما لله لله وما لقيصر لقيصر وليس لحاكم فى الإسلام أكثر مما للمحكوم، والحاكم عامل كبقية العاملين فى الدولة، له أجره لا يتعداه إلى أموال الأمة بحال وعليه السهر على المحافظة على حقوق الناس، وفى الحديث الشريف كما رواه الصحيحان: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته... إلخ»، احترام إنسانية الإنسان، وحقوقه كاملة أهم واجب من الواجبات على ولى الأمر وهو مبدأ من مبادئ الإسلام، إلى واجب سهره على تنفيذ القوانين وعدم مخالفة أجدلها صغيرا أو كبيرا بحال من الأحوال. وهذه هى الديمقراطية الحقة، والسياسة الرشيدة، والحكم الصالح، الذى يفرض المساواة بين الناس جميعا، ويجعل الإخاء والمودة والتعاون والتكافل الاجتماعى شريعة، ويسهر على أمن المجتمع وأمانه سهرا دائما. وبوازع من الدين والضمير والقوانين والقدوة الحسنة يقضى على الأزمات الخلقية التى تنشب فى المجتمع وتظهر آثارها السيئة بين الحين والحين، المساواة تامة بين الناس جميعا، يدعوا الله فى القرآن المسلم والبشر جميعا أن يشعر كل منهم

بالمساواة التامة بينه وبين إخواته من الناس.. طهارة الحكم وطهارة الحاكم والأمانة التامة والالتزام بالمسئولية، كل ذلك من وسائل علاج الأزمات السياسية، التى عالج بها الإسلام والقرآن معاناة الشعوب والجماعات والأفراد، والتى تحرص كل الحرص على احترام الطفولة والشيخوخة والمرأة والعامل واليتيم والمريض والمسكين والعاطل عن العمل احتراما كاملا وترعاهم الرعاية التامة فالمحافظة على جميع حقوق الإنسان هى أساس الحكم والسياسة فى الإسلام وبهذا «صنع القرآن قادة لا جبابرة»[1].

(٦)

وخامس هذه الأزمات: أزمتنا مع الحضارة: أهل نسير وفق حضارتنا الإسلامية تراثنا القديم من الآباء والأجداد، أو نسير وفق الحضارة الغربية بكل أبعادها ونظمها التى نشاهدها كل لحظة.

الحضارة الإسلامية تقوم على أساس قوى من الدين والعقيدة والتوحيد والإيمان، بينما تفرغ الحضارة الغربية الإنسان من الدين والعقيدة، وتجعله عبدا لشهواته وملذاته، للمرأة والجنس والمال.

حضارة الإسلام حضارة روحية تؤمن بالمثل والقيم والأخلاق والنواميس الشريفة، وحضارة الغرب لا تؤمن إلا بالقوة والجنس والمال.

إن لنا نتساءل مع المتسائلين: هل يؤمن عقل الإنسان بالدين فى هذا العصر ويرى دينا أحق بالإيمان به من الإسلام؟

ولماذا لا يؤمن عقل الإنسان بالقرآن، ورجال الفكر فى الشرق والغرب يؤمنون كل يوم به، إيمانًا صادقًا دون زيف أو رياء أو خوف. إن خضوع العربى المسلم لحضارة الغرب، ووقوعه تحت سيطرتها الكاملة، مما جعله يواجه معضلات ومشكلات هائلة وخطيرة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد

(١) ١٣٣ من هدى القرآن ـ أمين الخولى ـ القاهرة.

والعلم، لا يدرى كيف يتفاعل معها فى علاقاته الداخلية والخارجية على السواء.

إن حضارة الغرب لا أساس لها. مادة بلا روح، وأهواء بلا عقيدة، وليست تنطوى على أية نزعة إنسانية أو خلقية، وهى تقف كل لحظة أمام أبواب الفناء الذرى.

يقول إقبال: «مثلت حضارة الغرب دورها، وقد شاخت وهرمت، وأينعت كالفاكهة وحان قطافها، وسوف ينهار العالم الذى حوله مقامرو الغرب إلى حانة للفساد، ولقد رأت أوربا بعينيها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد، وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام، وورث محمدا وإبراهيم قيادة العالم».

إن حضارة القمار والربا والمكيافيللية الشريرة، والأيدلوجيات المختلفة والتفرقة العنصرية البغيضة، والاستعمار الوحشى البربرى، حضارة العرى، والإباحية، والعلمانية والمادية، حضارة استعباد المرأة باسم تحريرها.. لا مكان لها فى قاموس المثل والقيم الشريفة، ولا وجود لها فى ظلام الإسلام والقرآن، وكل عنصر شريف فى حضارة الغرب فهو منا وإلينا.

الحضارة الغربية بكل طاقاتها ووسائلها وابتكاراتها، وبكل فلسفاتها وأيديولوجيتها ومذاهبها، من الرصاصة إلى القنبلة الذرية والهيدروجينية والفلكية أخيرا، إلى الصواريخ الجبارة التى تنتظر التحليق فى السماء، ثم بكل ما ينشأ من أجل نموها وبقائها من جامعات ومصانع وشركات ومؤسسات، وما يرصد لها من أموال واستثمارات وثروات وكنوز منهوبة.

هذه الحضارة هى أول هائل مفزع يحسب حسابه فى لغة الأعداد ولغة القوة، ولكنها مع ذلك، وكما نؤكد، وهن من بيت العنكبوت.

ذلك أنها بناء بلا أساس، وجسم من غير روح، ومادة دون عقل، وسلوك خاص بلا عقيدة. هى لا تنطوى على نزعة إنسانية أو خلقية، حتى لنراها يدمر بعضها بعضا ويحطم جانب منها جانبا آخر وإذا كانت هذه الحضارة قد يسرت الحياة أمام الإنسان فإنها قد رجعت به القهقرى إلى حياة الغاب.

وعلى أن رأس المال الضخم الذى يدعم هذه الحضارة لا يرهبنا، ففى الإمكان أن يكون لنا مثله، وخيرات بلدنا وكنوزها تمثل قسما منه، والقسم الآخر هو ثمرة العقل واستغلال نعم الله فى الأرض، ولا يعجزنا المسير مع الغرب فى هذا الميدان فلنا من العقل مثل ما لغيرنا سواء بسواء، أما القسم الثالث من رأس المال هذا فهو من صنع الربا والاحتكار، وبسببه يسلط الله الحروب على الأرض لتبتلع هذه الأموال الحرام، ويرسل عليها شواظا من الخوف فهى فى السلام فى خوف من الحرب كخوفها من الحرب ذاتها، وما ينفق فى صنع مركبة قمرية مثلا من أموال طائلة كان يمكن أن يكون وسيلة سعادة ورفاهية للملايين المحرومة.

ومع ذلك فنحن لا يغيب عن تفكيرنا أن هذه الحضارة الغربية قد نال منها الهرم ودبت فيها الشيخوخة وأخذت تقترب من حافة الفناء.

يقول بول فاليرى الشاعر الفرنسى الكبير[1]: فرنسا، إنجلترا، روسيا، ويالها من أسماء كانت جميلة، كما كانت أسماء عيلام ونينوى وبابل جد جميلة، ولحاق هذه الأسماء الراهنة بأسماء الأمس الغابر لم يعد شيئا مستعصيا على الإدراك.

ويقول فولنى من كبار رجال الفكر الأوربى:

ماذا أصاب تلك البدائع الراهنة التى حققتها يد الإنسان؟ أين هى حصون

(١) المتنبئون بالسقوط ـ مقال لرمضان لأوندى ـ البلاغ الكويتية عدد ٢٧ رمضان ١٩٧٠.

نينوى وجدران بابل؟ ومن يدرى؟ لعل مسافرا فى المستقبل يجد نفسه عند شواطئ السين والتايمز يجلس باكيا فوق بقايا الفتات التى تحولت إليه معالم الحضارة حول هذه الأنهار.

ويعجب دنيس دورجمون من العدد الذى يتضاعف بصورة مستمرة من الأوربيين القائلين بانهيار الحضارة الغربية، ومن المتنبئين الذين يفضلون الحديث عن كشوفها، وصدق الله العظيم فيما يقول فى الآية: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ**﴾ [يونس: ٢٤]، فالمعنى على هذا هو فناء حضارة عجيبة من حضارات الحياة الدنيا كانت قد بلغت غاية نمائها وازدهارها، بأمر الله وقدرته فى لحظة من ليل أو نهار.

وما يقوله إقبال وغيره يقوله كذلك مفكرو العالم وفلاسفته كل يوم فى كل مكان(١). ونحن نعلم أن ميزان القوة فى العالم متغير أبدا وعلى امتداد التاريخ، ومن ذا الذى كان يتصور إمكان تصفية قوة ألمانيا أو روسيا العسكرية أو الإمبراطورية البريطانية العتيدة؟

ويقول بعض الكتاب: أنا لا أعتقد أن نسبة ما يملكه العالم الإسلامى اليوم إلى حضارة الغرب الراهنة أقل من نسبة ما كان فى أيدى أسلافنا إلى ما كانت تملكه الحضارتان الفارسية والرومية بعد ظهور الإسلام(٢).

وأين هذا كله من القيم الروحية والإنسانية الرفيعة التى قامت ونادت بها حضارة الإسلام، التى حررت الإنسان من العبودية والخضوع للفرد وللمجتمع(٣). ولن تجد الإنسانية يوم تتهاوى حضارة الغرب عقيدة تؤمن بها

(١) راجع: «الحضارة الإسلامية»، و«الإسلام والمدنية الغربية»، وهما للمورودى.

(٢) راجع: «المثل الأعلى للحضارة العربية» لمحمد البهى.

(٣) راجع: «شمس العرب تسطع على الغرب» تأليف هونكة، و«نحن والحضارة الغربية» للموردوى، و«الحضارة الغربية» لمحمد محمد حسين.

ونؤمن بمصيرها إلا الإسلام، فالإسلام وحده والإيمان به سوف يكون ضرورة بشرية، لأن ذلك هو مسيرة التاريخ وحتمية انتصار الحضارة، وهو العلاج الوحيد لكل مشكلات الحياة، وهو النتيجة الأخيرة لقدرة الإنسان على مواجهة التحديات التى يتحداه بها عصره وقدره.

على أن حضارة الغرب إنما هى فى أصولها العلمية والفكرية صدى كبير لحضارة الإسلام وللفكر الإسلامى، فلقد سرقت أوربا على غفلة منا كنوزنا ومواريثنا العلمية والفكرية والحضارية مثلما سرقت كذلك إمبراطورية المسلمين الكبرى الممتدة فى كل مكان وأقامت على كل هذه الأسس حضارتها الهائلة اليوم.

يقول غوستاف لوبون فى كتابه «حضارة الغرب»:

«أوربا مدينة للعرب بحضارتهم، فالعرب هم الذين فتحوا لها ما كانت تجهله من المعارف الفلسفية والعلمية والأدبية، فكانوا ممدين للغرب وأئمة له ستة قرون، وعن طريقهم اهتدى الغرب إلى تراث الإغريق، وكشف ماضيه فأخذ يبحث عنه..

وتقول المستشرقة الألمانية هونكة: كل موجة لعلم أو معرفة قدمت لأوربا كان مصدرها البلدان الإسلامية[1].

الإسلام عقيدة متكاملة، وحضارة متجددة، نابعة من منهج سليم مترابط، إنه ليس له صلة بأى مذهب من المذاهب المعاصرة، ولا تستطيع أن تقيسه بالرأسمالية ولا العمالية ولا الديمقراطية ولا الديكتاتورية، ولا غير ذلك من المذاهب، ولا تستطيع كذلك أن تزنه بأى مذهب منها.

إنه مذهب كامل صالح لكل زمان ومكان، وهو شريعة الله المثلى الوسطى الخاتمة للشرائع وللرسالات السماوية، وهو دين بقى كتابه المنزل من

(١) عالمية الإسلام - أنور الجندى - سلسلة اقرأ - العدد ٤٢٦.

السماء خالدا محفوظا فى الصدور والصحف منذ نزل هذا الكتاب من السماء إلى اليوم.

ولا يستطيع مسلم أن يقول إنى مسلم إلا إذا عمل بهذه الأصول كلها والتزم بها التزاما تاما دون حيدة عنها، أو خروج عليها، وفى حدود الأصول: العقيدة والمنهج. ليس له أن يخرج عن هذا الإطار السماوى ليأتى بإطار آخر يضعه بنفسه ثم يفرضه عليها، ثم يدعى أنه مسلم. لقد قضى الله عز وجل، وشرع لنا العقيدة والمنهج فليس لنا خيار فيهما، والله عز وجل يقول فى كتابه الحكيم فى سورة الأحزاب: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا**﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وليس معنى ذلك أن نرفض الحضارة الغربية جملة. فنحن محتاجون إليها فى ميدان العلوم والصناعات والاكتشافات الكونية ويجب أن تأخذ بما أخذ الغرب به نفسه من ثمار ابتكاراتها فى استغلال خيرات الأرض للإنسان، وفى ميدان التفوق الحربى وفى كل ما يعود بالخير على الإنسان.

أما فى العقائد والتقاليد والأعراف والربا والأخلاق والإباحية والإلحاد فكلا والف كلا.. بل ونحن نحذر المسلمين منه تحذيرا شديدا.

يقول أنور الجندى فى كتابه عالمية الإسلام: ليس مفروضا على أية أمة تلتمس من نتاج الحضارة العالمية شيئا أن تأخذ معه فكر أمة أخرى أو عقائدها أو سلوكياتها[١].

إن التوجيه القرآنى إذ ينشد الحضارة الصناعية القائمة على العلم التجريبى بغية تمكين الإنسان من سيادته على الكون ينشد العلم الدقيق بالكون أيضا[٢].

(١ ، ٢) عالمية الإسلام - أنور الجندى - سلسلة اقرأ - العدد ٤٢٦.

وبعد فهذا هو منطق القرآن والإسلام فى علاج أزمات الإنسان المعاصر. إنه منطق الخير والنور والهداية والإصلاح والتجديد والبناء.

منطق الطهر والصفاء والطمأنينة النفسية والروحية، منطق الإيمان والالتزام بالمسئولية والأمانة التامة والشرف الذى لا حدود له.

(٧)

وأخيرا أورد هذه الإحصاءات..

إن كلمة الإنسان ذكرت فى القرآن الكريم ستا وستين مرة وذكرت مشتقاتها كثيرا.

«فالإنس» جاء فى تسعة عشر موضعا، وكلمة «أناس» وردت خمس مرات «وأناسى» وردت سبع مرات. «أنسى» مرة واحدة.

الإنسان بكل نزعاته وأفكاره وبكل ما فيه من طبيعة الإنسانية التى انتصر لها إبليس فى حواره مع آدم عليه السلام، وأبى آدم عليه ذلك لأنه يؤمن بالله وبالدين وبهدى السماء.

لقد ذكر الله عز وجل طبيعة الإنسان الذى لم يهذبه الدين ولم يهتد بنور الوحى، ذكره الله عز وجل بالأوصاف الحقيقية له!

- ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].
- ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].
- ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥].
- ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧].
- ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١].
- ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

- ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٤].

- ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً﴾ أى شديد البخل [الإسراء: ١٠٠].

- ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

- ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ [هود: ٩].

- ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٣].

- ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩].

- ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

وذكر القرآن الكريم طبيعة الإنسان فى طلب الخير لنفسه:

- ﴿لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩].

- ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾ [العلق٦ ، ٧].

وذكر موقف الإنسان أمام الشيطان:

- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

- ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٩] أى شديد الخزلان لمن يستعين به

- ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ [الحشر: ١٦].

- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

وذكر القرآن الكريم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

كما ذكر القرآن الكريم حساب الإنسان فى الآخرة فى آيات كثيرة.

وكما ذكر الإنسان بحقوق الوالدين عليه فى مواضع عدة.

هذا هو الإنسان فى القرآن الكريم.

وبعد فهذا هو كتاب الله ووحيه الأمين، القرآن الحكيم، وموقفه من علاج أزمات الإنسان المعاصر.

إنه الإيمان ، ثم الإيمان، ثم الإيمان. بقول جراهام جرين أديب انجلترا: «الإيمان أكبر علاج لأمراض الشباب».. وأقول: بل لأمراض الإنسانية جمعاء...

[تم بحمد الله]

مصادر الكتاب

- رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ـ كتاب الهلال الشحرى ـ يوليو ١٩٨٠ ـ العدد ٣٥٥.
- الإسلام دعوة عالمية ـ العقاد (كتاب الهلال ٣٧) نوفمبر ١٩٩٧.
- الإنسان فى القرآن الكريم ـ العقاد ـ ط هيئة الكتاب العامة مكتبة الأسرة ١٩٩٧.
- الإسلام والحضارة الإنسانية ـ د. محمد البهى كتاب الهلال ٢٦٤.
- عالمية الإسلام ـ أنور الجندى ـ سلسلة اقرأ ١٩٧٧.
- الإسلام والإنسان المعاصر ـ فتحى رضوان ـ اقرأ ـ ٤٠٦.
- الإسلام والعصر ـ لصاحب هذا البحث ـ ١٩٩٣ ـ المطبوعات العربية الحديثة ـ القاهرة.
- عالمية الإسلام ـ لرؤوف شلبى ـ ملحق بمجلة الأزهر ١٤٠٩ هـ.
- عالمية الإسلام ـ د. شوقى ضيف ـ دار المعارف ـ ١٩٩٦.
- من هدى القرآن ـ أمين الخولى ـ مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- العرب والحضارة الأوربية ـ محمد مفيد الشوباشى ـ سلسلة اقرأ ـ العدد ٤٣٣.
- الثقافة العربية ـ العقاد ـ العدد الأول من سلسلة المكتبة الثقافية.
- منهج القرآن فى بناء المجتمع ـ الشيخ محمود شلتوت.
- إلى القرآن الكريم ـ الشيخ محمود شلتوت ـ كتاب الهلال الشهرى ـ يوليو ١٩٨٣.
- الإسلام وارث الحضارات لصاحب هذا البحث ـ ١٩٧٦ ـ القاهرة. الفكر الإسلامى ـ دار الجبل ـ بيروت ١٩٩٤.
- منهج القرآن فى تربية المجتمع ـ رسالة دكتوراه نوقشت فى كلية أصول الدين جامعة الأزهر ـ القاهرة ـ للباحث عبد الفتاح عاشور، بإشراف د. عبد الغنى الراجحى ـ نوقشت فى ١١/١١/ ١٩٨٢ ـ مخطوطة.
- الإسلام بين الشرق والغرب ـ د / على عزت بيجوفتش ـ الطبعة العربية ـ مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام ـ ترجمة محمد يوسف عدس ـ طبع مؤسسة العلم الحديث ـ بيروت.
- الإسلام والحضارة الإنسانية لصاحب هذا البحث ـ دار الكتب اللبنانى ١٩٧٤.

الفهرس

رقم الإيداع
٧٤٥٩/ ٩٩
I.S.B.N.
977 - 294 - 121 - X

مطابع آمون
٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦